بوشكين

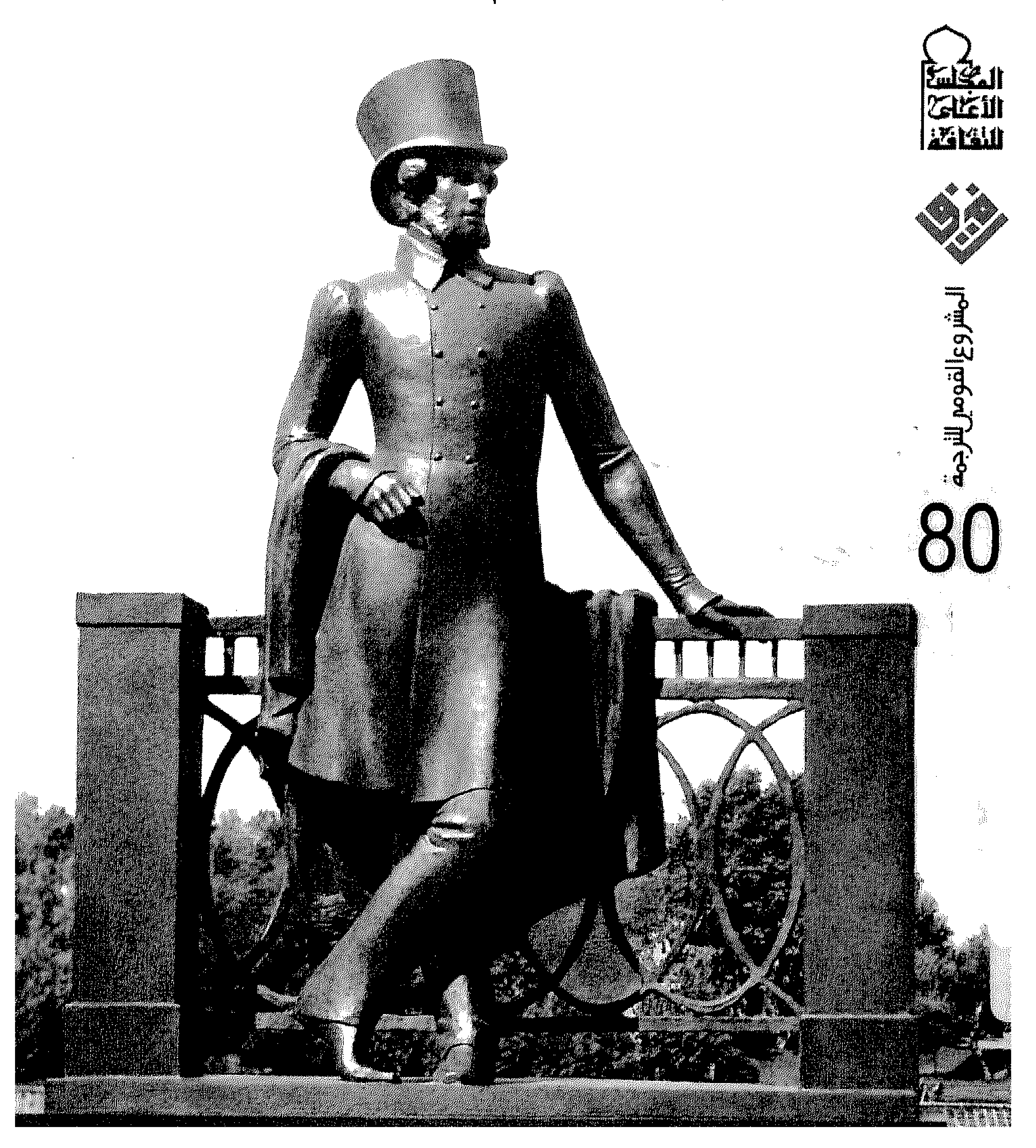
عند نافورة الدموع ومختارات أخرى

تقديم وترجمة **مكارم الغمري**

المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

80



المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة

بوشكين عند «نافورة الدموع»

ومختارات أخرى

(الجزء الأول)

ترجمة وتقديم

د. مكــــارم الغمـــرى

المجلس الأعلى للثقافة

١٩٩٩

اعتمدنا فى ترجمة هذه المختارات على:

أ.س. بوشكين

المؤلفات الكاملة فى عشرة أجزاء

دار نشر (العلم) - الطبعة الرابعة

А. С. ПУШКИН

ПОЛНОЕ СОБРАНИЕ
СОЧИНЕНИЙ
В ДЕСЯТИ ТОМАХ

* * *

ИЗДАНИЕ ЧЕТВЕРТОЕ

ИЗДАТЕЛЬСТВО «НАУКА»
ЛЕНИНГРАДСКОЕ ОТДЕЛЕНИЕ
ЛЕНИНГРАД 1977

المجلس الأعلى للثقافة / المشروع القومى للترجمة

بوشكين عند «نافورة الدموع» ومختارات أخرى

(الجزء الأول)

الطبعة الأولى / ١٩٩٩ م



ألكسندر بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧)
(الإنسان والفنان)

تقديم

يتزامن ظهـور هذه المختـارات واحتفـاء الأوساط الأدبية فى روسـيا وخارجها بالمئوية الثانية لميلاد شاعر روسيا الأكبر ألكسندر بوشكين. ورغم مرور عشرات السنـين على النهاية المأساوية لأكبر شعـراء روسيا، إلا أنه ما يزال - حتى وقتنا هذا- «بداية البدايات» فى الشعر الروسى.

ولا ينبع الوصف الدارج لـبوشكين «بشـمس» الشعـر الروسى أو «بداية البدايات، من فراغ، بل هو وثيق الصلة بالمكانة المضـيئة والخالدة التى يحـتلها إنـتاجـه فى تاريخ الأدب الروسى، فـالحديث عـن الشعـر الروسى الكلاسـيكى أو الشعـر الحـديث لا يخلو من الإشـارة إلى ارتباطه بالتـراث الشعرى لبوشكين الذى يبرز لا كعبـقرية شعرية فحسب، بل وكظاهرة فنية حوت بداخلها أهم تيارات الأدب الروسى الكلاسـيكى، فصارت بمثابة نبع لا ينضب أمـام الأجيـال التى تعـاقبت تنهل من رحـيـقه، مما جـعل الكاتب الروسى الشهير دستـويفسكى يقدم على الاعتراف فى تواضع جم بأن «كل الكوكبة الحالية من الأدباء تعمل على هدى بوشكين، ولـم تصنع الجديد من

بعده، فكل البدايات كانت منه أشار بها علينا، فضلاً عن أننا صنعنا أقل مما أشار به علينا، ولكن فى المقابل فالذى صنع جاء متفوقا ثريا، وفى عمق، ووضوح، وكان بفضله وبدرجة كانت ستجعل بوشكين يعترف به»[1].

نتوقف فى هذه المقدمة عند الملامح العامة فى السيرة الذاتية والإبداعية لبوشكين: شاعر روسيا الأكبر والذى يعد من أكثر أدباء روسيا حباً للشرق العربى وتأثراً به، وقد سبق أن تناولنا بالتحليل والدراسة هذا الجانب من إنتاجه فى الفصل الخاص به فى كتابنا «مؤثرات عربية واسلامية فى الأدب الروسى» الصادر عن عالم المعرفة فى الكويت فى عام ١٩٩١.

-١-

يا أطراف موسكو، يا أطراف موطنى

حيث فى فجر سنواتى الزاهرة

قضيت ساعات ذهبية لامبال

لا أعرف حزناً ولا ضيما

بوشكين

موسكو فى بداية القرن الماضى، مدينة تعج بالصخب وخليط الألوان والمشارب، منازل الإقطاع الفسيحة، قصور النبلاء الرائعة، جنبا إلى

(١) ف. دستويفسكى، المؤلفات الكاملة، لينتجراد، ١٩٢٩، جـ١٢، ص ٢٠٨.

جنب مع المنازل البسيطة لبسطاء القوم. حدائق فخمة تجاورها بساتين القرى المحيطة. وفى قلب موسكو يقف الكرملين والميدان الأحمر يعبقان برائحة القدم، والتاريخ، والأساطير..........

وإلى موسكو يفد شتاءً سكان الضياع من الضواحى فتصدح أصوات الموسيقى، والحفلات الصاخبة فى أرجاء المدينة الفسيحة، وتمتلئ بالحياة والحركة. ذلك هو الجو العام الذى تفتحت فيه موهبة بوشكين الشعرية، حيث ولد فى أسرة ضابط متقاعد ينتمى إلى طبقة النبلاء الأرستقراطية.

وجد بوشكين نفسه منذ الطفولة المبكرة فى ظروف ملائمة لتشكيل الموهبة الشعرية، فقد كان والد الشاعر نفسه مغرماً بالشعر، وكانت لديه بعض التجارب الشعرية المكتوبة بالفرنسية، كذلك كان عمه فاسيلى بوشكين أديب على قدر معقول من الشهرة، وبالإضافة إلى ذلك كان منزلهم مقصداً لكبار الشعراء والكتاب، وكان من بينهم شعراء كبار من أمثال كارمازين، وچوكوفسكى، وباتوشكوف، ولذا لم تكن كلمة «شاعر بالنسبة لبوشكين الطفل مفهوما مجردا، فهو لم يكن يقرأ فقط الشعراء الآخرين، بل كان أيضا يسمعهم وهم يقرأون بأنفسهم، وقد كان لكل هذا تأثير كبير عليه، ولكن العامل الضخم والفريد والحاسم كان فى موهبته الذاتية»(٢)

---

(٢) ب. بورسوف، «مصير بوشكين»، لينتجراد، ١٩٨٦، ص١٩.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت الأسرة تمتلك مكتبة ثرية تحوى روائع لأدب الروسى والعالمى.....

سارت تربية بوشكين فى طفولته فى خطين متوازيين: خط ينفتح على الثقافة الأوربية وخاصة الفرنسية التى كان يجيدها لغة وثقافة، حيث تربى كأقرانه من أبناء الطبقة النبيلة الأرستقراطية على أيدى مربين فرنسيين.

وخط يلتحم بالتراث القومى تشربه من امرأتين كان لهما فضل كبير فى التنشئة الروحية والقومية لشاعر المستقبل، أما الأولى فهى مربيته الروسية، الفلاحة البسيطة التى أعتقت من الرق لكنها آثرت مع ذلك البقاء مع سادتها لرعاية أطفالهم، ثم أحفادهم، والثانية الجدة ماريا هانيبال حفيدة الجد إبراهيم هانيبال، هاتان المرأتان كانتا النبع الذى نهل منه شاعر المستقبل الحكاية الشعبية، والمأثورات، والأغنية الشعبية.

-٢-

كان للجد إبراهيم هانيبال مكانة عزيزة فى قلب الشاعر بوشكين، فقد كتب بوشكين فى ملاحظاته حول الفصل الأول من روايته الشعرية «يفجينى اونيجن»: «فى روسيا حيث تتوارى للحال ذكرى الناس الرائعين بسبب قلة النشرات التاريخية، فإن حياة هانيبال الغريبة معروفة فقط حسب الحكايات العائلية. ولذا نأمل مع الوقت أن نصدر قصة حياته الكاملة»(٣)

---

(٣) أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة فى عشرة أجزاء، (الطبعة الرابعة) جـ٥، لينينجراد، ١٩٧٨، ص ٤٣١.

لقد اجتذبت بوشكين بشدة رواية قرابته من إنسان «إفريقى الدماء»، كما يقول عن نفسه، لاسيما وقد أوحوا إليه منذ طفولته بأن دماءه المختلطة كان لها شأن فى موهبته المبكرة، فما أن شب بوشكين حتى أخذ يفتش عن حقيقة هذا النسب، بحث بوشكين عن تفاصيل قصة الجد إبراهيم فى كل الوثائق التى تناولت نسبه، وبخاصة المراجع التى تناولت وصف التفاصيل الخاصة بموطن إبراهيم والقصة التى اختطف بها من وطنه، وكتب يقول:

«إن المؤلف من جهة الأم إفريقى الأصل، وقد اختطف جده إبراهيم هانيبال فى عمر الثامنة من شواطئ إفريقيا ونقل إلى القسطنطينية. وبعد أن حصل عليه السفير الروسى أرسله كهدية إلى بطرس العظيم، الذى عمده فى فيلتى. وقد قدم شقيقه فى إثره إلى القسطنطينية، ثم إلى بطرسبرج عارضا فدية لاسترداده، لكن بطرس الأول لم يوافق على إعادة ابنه بالعمادة. وحتى سنوات الكبر العميقة كان هانيبال مازال يتذكر بعد إفريقيا، وحياة الأبهة عند والده، وإخوته التسعة عشر، وكان الأصغر بينهم، كان يتذكر كيف كانوا يقتادونهم إلى الوالد وأيديهم مقيدة وراء ظهورهم، بينما هو الوحيد بينهم كان يسير حرا، ويسبح فى نافورة دار والده، كان يتذكر أيضا شقيقته المحبوبة لاجان، التى سبحت طويلا وراء السفينة التى ابتعدت به.

وفى عمر الثامنة عشر أُرسل من قبل بطرس إلى فرنسا، حيث بدأ خدمته فى جيش الوصى على العرش، ثم عاد إلى روسيا برأس مشقوقة

ورتبة الملازم الفرنسية، ومنذ ذلك الحين كـان موجودا في حرس الإمبراطور الخاص لا يفترق عنه(٤)».

لقد تعددت الروايات التى تناولت وصف الجد، والوطن الأصلى له إلى أن تمكن العالم الأنثروبولوجى د. أنوشتين فى تسعينيات القرن الماضى من أثبات الانتماء العرقى والقومى لإبراهيم هانيبال؛ حيث أكد أنه كان «حبشى الجنسية وله بشرة سمراء داكنة»(٥) (وهو رأى يحتاج إلى مزيد من الدراسة والتحرى).

التحق إبراهيم هانيبال بسلاح المدفعية، حيث كان يشرف على تعليم الضباط الجدد، وتدرج فى الوظائف العسكرية حتى بلغ رتبة الجنرال وأصبح قائداً لسلاح الهندسة العسكرية فى بطرسبرج، وقد نال ابراهيم الاوسمة العسكرية الرفيعة، وتمكن من اقتناء ضيعة شاسعة، وحصلت عائلته - فيما بعد - على لقب النبالة. تزوج إبراهيم مرتين، فشلت الزيجة الأولى، وقبل أن تتم إجراءات الانفصال أقدم على الزيجة الثانية التى أثمرت سبعة أبناء منهم الابن يوسف الذى أنجب جدة بوشكين.

تأثر بوشكين - بشدة - بقصة الجد الذى اقتلع من جذوره وحرم نعمة الأهل والوطن، ومع ذلك تمكن بذكائه ومهارته من أن يحرز مكانة

---

(٤) المرجع السابق، الصفحة السابعة.

(٥) عن ن. تيلويتوفا :«آل هانيبال أجداد بوشكين» فى كتاب «الليالى البيضاء» مجموعة دراسات. تحرير سلوبوجان. لينتجراد، ١٩٨٧، ص ٢٧٦.

اجتماعية ومادية مرموقة فى بلاد الغربة، وأن يحصل على لقب «فارس النجمة الذهبية»، وهو لقب كان لا يمنح إلا للقليلين من المواطنين الروس الأصليين.

كان بوشكين شديد الاعتزاز بنسب أجداده، فقد كان يعده «التركة الوحيدة» التى حصل عليها منهم، ولذا خوفا من ضياع «ذكرى الناس الرائعين» - على حد تعبير الشاعر - خلد ذكرى الجد إبراهيم فى أكثر من مؤلف يأتى على رأسها القصة التاريخية الطويلة «عبد بطرس العظيم».

-٣-

ودّع بوشكين موسكو مسقط رأسه للالتحاق «بالليسيه» للدراسة، وكان عمره آنذاك الثانية عشرة، وكانت الليسيه الكائنة فى إحدى ضواحى مدينة بطرسبرج بمثابة مؤسسة علمية فريدة بالنسبة لذلك الوقت، فقد كانت منوطة بإعطاء تعليم خاص لأبناء الصفوة، حيث اختير للتدريس لها الاساتذة الأكفاء، وشملت برامجها التعليمية موادا لا تخص فقط مرحلة التعليم الثانوى، بل والتعليم العالى.

وقد تحولت الليسيه وقت دراسة بوشكين (١٨١١-١٨١٧) إلى مركز للنشاط الأدبى وملتقى لكبار الأدباء؛ فكانت تعج بالنشاط الأدبى، حيث كان طلابها يصدرون المجلات والكتب، ويتناقشون فى قضايا الفن والأدب والسياسة، وكان الشعر يقرض فى الليسية فراداً وفى جماعات، وسرعان ما صار بوشكين محوراً للنشاط الأدبى فى الليسيه.

لعبت سنوات الدراسة فى الليسيه دورا كبيرا لا فى تكوين بوشكين كشاعر فحسب، بل وأيضا فى تشكيل وعيه القومى وشعوره كمواطن، فقد كانت مركزاً لالتقاء رواد الحركة الاجتماعية، وكان من بينهم الشاعر والفيلسوف وفيما بعد عضو الانتفاضة الديسمبريه تشادابيف الذى كان فى ذلك الوقت ضابطاً بكتيبة الفرسان، وتوطدت أواصر الصداقة بينه وبين الشاعر بوشكين فى وقت الدراسة، وقد كان لهذه الصداقة فيما بعد أثرها البالغ على فكر بوشكين الذى كان معجبا بتشادابيف إعجابا كبيراً و«كان يسمعه - عادة - بكل كيانه»(٦)

وفى الليسيه كانت أيضا بداية الرحلة الإبداعية لأكبر شعراء روسيا؛ حيث خرجت باكورة أشعاره «فى سنوات النهضة القومية الوطنية التى بعثتها الحرب الروسية النابليونية فى عام ١٨١٢ التى ايقظت المشاعر الوطنية للشاعر الشاب»(٧).

وفى الليسية كذلك بدأ بوشكين كتابة «روسلان ولودميلا» التى افتتحت عهداً جديداً آذن بإدراج التعبير الشعبى فى المؤلفات الأدبية فى الأدب الروسى.

تزامنت بداية الرحلة الإبداعية لبوشكين مع حركة انعطاف التيار الأدبى فى روسيا عن المذهب الكلاسيكى الذى كان سائدا فى القرن الثامن عشر، وفى غضون ذلك حلّت فترة سُميت بالفترة «الكارمازينية» نسبة إلى اسم الشاعر كارمازين أحد معلمى بوشكين، وقد اعتبر نتاج «الكارمازينية»

---

(٦) عن ب. تينيانوف، «بوشكين»، مينسك، ١٩٨٨، ص ٥٣١.

(٧) عن س. بيتروف، تاريخ الأدب الروسى، جـ١، موسكو، ١٩٧٠ (الطبعة الثالثة)، ص ١٧٩.

خطوة إلى الأمام بالنسبة للكلاسيكية السابقة لها فى اتجاه الاهتمام بعالم الإنسان الفرد، وتطوير الأسلوب الشعرى بتحريره من البلاغة الخطابية للمذهب الكلاسيكى، والجنوح نحو البساطة فى التعبير.

وعلى خلاف نتاج الكلاسيكية الذى اهتم بالموضوعات الكبيرة، والقصائد البطولية جاء نتاج « الكارامازينيين» مرتبطا بالغنائيات العاطفية، والقصائد التاريخية الرومانتيكية، مما جعله - فى الأعم - قاصراً على دائرة ضيقة من القراء من رواد الصالونات الأدبية.

وقد بدأ بوشكين طريقه الفنى، فى الليسيه مرتبطا بجماعة «الكارمازينية» فى صراعها مع أنصار الكلاسيكية. وظهر نتاجه الأدبى المبكر يحمل - فى الأعم - طابعاً غنائياً. ومع ذلك فقد ظهرت فى كتاباته المبكرة محاولات الشاعر للخروج عن دائرة الغنائيات نحو الشمول الأكثر اتساعاً للواقع.

ثمة وجهات نظر مختلفة تجاه تقييم نتاج بوشكين فى مرحلة الدراسة فى الليسيه، فبينما شاهد فيه البعض- مثل الناقد بيلنسكى - مرحلة «للتلمذة»، نجد أن البعض الآخر - مثل الناقد تينيانوف - يعده تعبيرا عن مرحلة «مكتملة» فى أشعار الشاعر(٨).

-٤-

قوبلت باكورة أشعار بوشكين بترحاب كبير، وخلع عليها كبير الثناء بعد أن شدت إليها الأنظار بجمالها وصدقها، ومع نهاية الدراسة فى

---

(٨) انظر ب. بورسوف، مصير بوشكين، مرجع سابق، ص ٣١.

الليسيه كان قد بات واضحاً أن بوشكين قـد صار مستعداً تماماً لتبوء المكانة التى تنتظره باعـتلاء عرش الشـعر الروسى الذى توج ملكا عليـه حتى يومنا هذا.

وفى مدينة بطرسـبرج كانت مـحطة الشاعر الثـانية بعد الانتـهاء من سنوات الدراسة فى الليسيه، وكان ذلك بداية مـشوار الحياة العملية فى لجنة الشئون الخارجية فى بطسبرج فى عام ١٩١٧.

انخرط بوشكين فى جو الحياة الأدبية والاجـتماعية لمدينة بطرسبرج، مدينة الليالى البيضاء والقصور والميـادين البديعة، ملهمة الشعراء والفنانين، فكان يشـارك فى نشـاط جمـاعة «ارزمـاس الأدبيـة» التى صار واحـداً من أعضـائها النشطاء، ثـم بعد ذلك صار عـضواً فى الجـماعـة الأدبية «اللمـبة الخضـراء»، كمـا كان يحـضر عروض المسـرحيـات، والحفـلات، ولقاءات المجـتمع العلوى والتى كـان يقـبلها على مـضض، فـقد كـان «طيب القلب مخلصاً فى مشاعره تجاه الناس، لذا كـان عادة لا يجرؤ فى علاقات المجتمع العلوى على رفض أى حـفلة، وفـى غضـون ذلك كـانت هذه العـلاقـات العلوية تجلب له الكثير من الألم[٩]».

(٩) بوشكين فى ذكريات المعاصرين، إ. فاتوروف وآخرون، موسكو، جـ٢ ١٩٨٥، ص٥١.

كانت بطرسبرج تـعيش فى تلك الفترة حالة من النهضـة القومية فى إطار الانتعاش العام الذى أثمرته نتائج الحرب الروسية النابليونية (١٨١٢-١٨١٤) واجتيـاح جيوش نابليون، واتضحت هذه المشـاعر - بشكل خاص - بين صـفوف المثـقـفين النبلاء الذيـن كانوا يمثلون صـفـوة الفكر فى تلك الآونة، والذين تربوا عـلى أفكار التنوير الغـربى، والـروسى وأفكار الثـورة الفرنسـية، وساهمـوا بشكل مباشـر فى الحرب الروسية الـنابلونية فى أردية الضباط. وفى إطار ظروف النهضة القومية هذه انبثقت من بين طليعة النبلاء المثقـفين فى تلك الآونة جمعيـات سرية سياسـية كانت تعد العـدة للإطاحة بالحكم القيـصرى، ونظام القنانة الذى يستـعبد الفـلاح. تلك كانت بدايات الحركة «الديسـمبرية» أول حلقة روسية ثورية تحـريرية فى تاريخ روسيا فى القرن الماضى، والتى كان فى مـقدمة أهدافها تحـرير الشعب من نظام القنانة فى إطار النظام الإقطاعى الـنبيل، وبذا فـإن الديسـمبريون قد وقـفوا ضـد الركائز الاساسية لطبقتهم الخاصة.

وفى غـضـون ذلك فـإن الأدب الروسى كـان يعـايش نبـضـات الديسمبريين، وليس صـدفة أن العديد من أعضاء الحركة الديسـمبرية كانوا من بين صفوف الأدباء.

ورغم أن بوشكين لم يـكن شـريكاً لحـركـة الديسـمـبريين، إلا أن أشعـاره فى فترة عـمله فى بطرسبرج عـبرت عمـا يجول فى خاطر الحـركة الديسـمـبرية، واتسـمت بالمذاق الوطنى، وبروح الاحـتـجـاج ضـد الظلم

الاجتماعى، وفى غضون ذلك بررت فكرة الحرية كموضوع رائد فى أشعاره، ولعل قصائد بوشكين «الحرية» ١٨١٧، «إلى تشاداييف» ١٨١٨ القرية (١٨١٩)، هى تجسيد لهذه الفكرة، فقد عبرت عن الاحتجاج ضد الظلم، والقنانة، والحكم الاستبدادى.

وجدت أشعار بوشكين المحبة للحرية مناخاً طيباً فى البيئة المحيطة بها، فانتشرت انتشاراً صاروخياً بين فئات الشعب المختلفة، واكتسبت شعبية متزايدة أثارت ضيق القيصر وحنقه، فقرر نفيه إلى سيبريا ثم خففت العقوبة بالنفى إلى الجنوب بفضل وساطة أصدقاء بوشكين الشعراء: جلينكا، جوكوفسكى، كارامازين.

شهد التيار الأدبى فى روسيا فى العقدين الأولين من القرن التاسع عشر بدايات الحركة الرومانتيكية فى إطار من تبادل رد الفعل والتفاعل مع انظمة جمالية متعددة مثل الكلاسيكية، والعاطفية، والتنوير. وقد تلخص البرنامج الإبداعى للرومانتيكية فى روسيا فى عشرينيات القرن الماضى فى «تجاوز الكلاسيكية بتجريدها ومعياريتها، وفى تأكيد ذاتية الإبداع والمحسوس والحرية»(١٠)

---

(١٠) ج. بوسبيلوف، «مشاكل التطور التاريخى للأدب»، موسكو، ١٩٧٢، ص ١٠٥.

وقد تمكنت الرومانتيكية الروسية فى عشرينيات القرن الماضى من أن تغدو قوة محركة ورائدة فى الحياة الأدبية. ويعتبر الشاعر بوشكين شخصية رئيسية، بل ومركزية فى الحركة الرومانتيكية الروسية، فقد احتوت الرومانتيكية الجزء الأكبر من إنتاج بوشكين، كما احتفظت لنفسها بحيز من البقاء داخل مؤلفات بوشكين الواقعية نفسها.

حملت رومانتيكية بوشكين الكثير من سمات الحركة الرومانتيكية الروسية بخاصة، والأوربية بعامة ففيها نجد الخيال والحلم اللذين يجسدان المثل الأعلى الشاعرى للرومانتيكية، ونجد المقابلة بين الواقع الفعلى الذى يتمرد عليه الرومانتيكى والواقع الحلم الذى ينشده، وفيها نجد الطبيعة، وقوى ما وراء الطبيعة، والأسطورة والتاريخ.

وتجسد رومانتيكية بوشكين المشاعر الإنسانية «غير العادية» من خلال بطل بوشكين الرومانتيكى الذى تصطرع روحه بالرغبات العارمة، ويتجسد من خلاله مثال الشاعر الأعلى فى الحب، والعدالة، والخير، والحرية.

وتعتبر فترة منفى بوشكين فى الجنوب (١٨٢٠-١٨٢٤) من أهم فترات تطور الرومانتيكية فى إنتاجه، فقد شيدت فى الأعوام (١٨٢٠-١٨٢٣) أعظم نماذج غنائياته السياسية، معظم نتاجه من البؤئيما (القصة الشعرية) ،وذلك مثل «أسير القوقاز» (١٨٢١)، «الإخوة قطاع الطريق»

(١٨٢٢)، «نافورة باختشى سراى» (١٨٢٣). وقد اختتم البؤئيمات الجنوبية «بالغجر» التى عمل فيها بوشكين مؤخرا فى عام ١٨٢٤ فى اوديسا ثم فى ميخائيلوفسكى.

لقد تجاوبت طبيعة الجنوب الثرية، وحياة شعوبه الشرقية التى تعبق بالتاريخ القديم مع معطيات تطور الرومانتيكية فى مسيرة إبداعه، فضلا عن ولعه بإنتاج بايرون فى تلك الفترة الذى كان له أثره الكبير على الرومانتيكية فى إنتاجه.

بالإضافة إلى ذلك فقد كانت فترة الإقامة فى الجنوب فرصة لالتقاط الأنفاس من الحياة الصاخبة فى بطرسبرج التى لم تكن ترق للشاعر، والابتعاد عن طبقة المجتمع العلوى بكل ما كانت تسببه من معاناة له. وتحمل بؤيما «أسير القوقاز» طابع التعبير عن الذات، وذلك من خلال صورة البطل الباحث عن الحرية والموجود فى صدام وتناقض مع الواقع، وبوشكين يقدم حلاً لهذه المشكلة التى يقع فيها البطل بالهروب الرومانتيكى إلى عالم الشرق حيث يجد البطل فى طبيعة الشرق الساحرة ملاذا للنفس.

وإلى جانب الملمح الغنائى «لأسير القوقاز» أورد بوشكين وصفاً لطبيعة القوقاز يتسم بالإخلاص الشديد لوصف الملامح القومية المميزة للمكان ومظاهر الحياة به، ومن هذه الزاوية جسدت بؤئيما «أسير القوقاز» ملمحاً هاماً من سمات الرومانتيكيين الروس.

وقد نُظر إلى «أسير القوقاز» بوصفها علامة هامة فى طريق تطور الأدب الروسى، فقد «أعطت نموذجاً للمؤلف الرومانتيكى المحب للحرية من الطراز الغنائى القصصى، مفتتحة بذلك صفحة جديدة وهامة فى الحياة الروحية للمجتمع الروسى، مرحلة الرومانتيكية الجديدة»(١١).

أما فى «الإخوة قطاع الطريق» فقد تطرق بوشكين لموضوعات لقيت انعكاساً لها فيما بعد فى مؤلفاته الواقعية، مثل موضوع احتجاجات الفلاحين التى تمخضت عنها الحياة الاجتماعية والتاريخية فى روسيا: بلد الأقنان الفلاحين حتى عام ١٨٦١، وهو عام إلغاء قانون القنّانة».

ولقد كان رد فعل بوشكين على أوضاع الفلاحين بمثابة تجاوب من جانبه مع روح العصر، وهو التجاوب الذى يعد سمة هامة من سمات إنتاجه.

وتعتبر بؤئيما «نافورة باختشى سراى» أيضا من أهم إنجازات بوشكين الرومانتيكية فى فترة الجنوب، وقد حظيت على شهره كبيرة، وتحولت إلى عرض معروف للبالية، وسوف أتوقف عندها فى مقدمة ترجمة النص الكامل لها فيما بعد.

---

(١١) د. بلاجوى، «تاريخ الأدب الروسى فى القرن التاسع عشر، موسكو، ١٩٧٠، ص ٤٣٧.

بوشكين هو - بحق - نموذج للفنان الشامل، فقد اتجه إلى تجريب ضروب أدبية مختلفة فى إنتاجه مما جعل بعض نقاده يقدرون فيه - على نحو خاص- «كشوفاته الضربية»(١٢) فإلى جانب الشعر الغنائى الذى يشغل مكانة مرموقة فى إنتاجه، كتب بوشكين المراثى، والأودا، والبؤئيما الرومانتيكية بالإضافة إلى التراجيدية القصيرة، والمسرحية التاريخية، والرواية، والأسطورة، والدراسة النقدية.

وتعتبر فترة إقامة بوشكين فى قرية ميخائيلوفسكى مرحلة انعطاف فى مسيرته الإبداعية تجاه المذهب الواقعى، كذلك كانت فترة لصقل المعرفة والتجربة الحياتية، وتجريب ضروب فنيه جديدة.

كانت قرية ميخائيلوفسكى هى محطة المنفى الجديد بالنسبة لبوشكين بعد قضاء أربع سنوات من المنفى متنقلا بين القرم والقوقاز واوديسا، فقد تزايدت شعبية بوشكين فى فترة المنفى، وانتشرت قصائده الحرة فى أرجاء روسيا؛ مما جعل القيصر يفرض عليه الإقامة الجبرية فى قرية ميخائيلوفسكى، ويضعه تحت الرقابة المشددة لايشاركه أحد فيها سوى مربيته العجوز.

---

(١٢) انظر ب. بورسوف، مصير بوشكين، مرجع سابق، ص ٣١.

وجد بوشكين فى إقامته الجبرية فرصة مواتية للتعرف عن قرب على حياة الفلاحين، والقراءة المتعمقة فى التراث الأدبى العالمى للشرق والغرب.

ورغم ثقل المعاناة بسبب الإحساس بالمطاردة، والانقطاع عن الأصدقاء والدوائر الأدبية فى ظروف تحديد الإقامة الجبرية فقد استثمر بوشكين هذه الفترة فى الحديث مع الفلاحين، والتواجد فى الأسواق الضاجة والنزهات الشعبية، حيث عفوية الحديث الشعبى، والأغنية الشعبية.

أما القراءات فكانت متعددة ومتشعبة. وبوشكين -حقيقة- يقدم نموذجاً للفنان المثقف الذى لايعتمد على الموهبة الفنية وحدها، بل يحاول صقل الموهبة بالدراسة، والقراءة، والخبرة الحياتية. ولا أدل على ذلك من كلمات الشاعر بوشكين التى يؤكد فيها أن الموهبة حين تفتقر إلى العمل «لايخرج من خلف القلم شىء ذو مغزى»[١٣]، وقد أكد بوشكين بنفسه هذه القيمة حين انكب على التراث القومى والعالمى ينهل منه ليثرى تجربته الأدبية ويوسع من أبعادها.

إن دائرة قراءات بوشكين متسعة ومتشعبة، فإلى جانب دراسة الثقافة القومية اتجه بوشكين إلى الأدب الإغريقى والآداب الإنجليزية، والفرنسية، والالمانية، والآداب الشرقية: ومن أهمها العربية والفارسية.

---

(١٣) أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ١، موسكو، لينتجراد، ١٩٣٧، ص ٨٨.

وتعتبر المسرحية التاريخية والرواية من أهم الأشكال الفنية التى اتجه إليها بوشكين فى فترة إقامته فى قرية ميخائيلوفسكى.

اعتمد بوشكين فى كتابته للتراجيديا التاريخية «بوريس جودنوف» على المصادر التاريخية، فمن المعرف استناده فى كتابتها إلى الأجزاء (١٠-١١) من عمل الأديب كارامازين «تاريخ الدولة». (١٨٢٤-١٨٢٥).

اهتم بوشكين فى تراجيديا «بوريس جودنوف» بتصوير فترة نهاية القرن السادس عشر وبداية السابع عشر من تاريخ روسيا، وهى الفترة التى تنتمى إليها أحداث حكم القيصر بوريس جودنوف، والتى اتسمت بالدرامية والعنف.

ورغم استناد بوشكين إلى المصادر التاريخية إلا أنه قدم معالجته للتاريخ وطباع الشخصيات، وقد أشير فى العديد من الكتابات النقديه إلى الطابع التجديدى الذى ظهرت عليه هذه المسرحية؛ حيث «حطم بوشكين فى شجاعة فى تراجيديا «بوريس جودنوف» القواعد الدرامية المعترف بها بشكل عام مما اكسب المسرحية شكلاً غير عادى ينطوى على تحدٍ»(١٤).

وقد تبدى هذا الخرق لقواعد الدرامية فى الخروج على وحدة الزمان والمكان والحدث، حيث تنبسط أحداث المسرحية على رقعة زمنية متسعة

---

(١٤) س. فوميتشيف، «شعر بوشكين»، الارتقاء الإبداعى، لينتجراد، ١٩٨٦، ص ١٤٥.

تمتد لأكثر من سبع سنوات، أما مكان الأحداث فقد اتسم بالتباين والتنوع.

حاول بوشكين أن يشمل العصر التاريخى بشكل متسع فبسط أمام القارئ حشداً ضخماً من الشخصيات التى تنتمى إلى مختلف طبقات العصر التاريخى، ورغم أن المسرحية تحمل اسم القيصر بوريس جودنوف إلا أن شخصية القيصر جودنوف لاتشغل إلا ست لقطات من عدد لقطات المسرحية البالغة ثلاث وعشرين لقطه.

وقد سعى بوشكين فى تراجيديا «بوريس جودنوف» إلى إضفاء المصداقية التاريخية على شخصيات المسرحية، فالناس فى المسرحية يتحدثون بلغة ذلك العصر التاريخى الذى يرتبطون به، ولكل شخصية تاريخية وجودها المميز، وقد اعتمد بوشكين فى ذلك على دراسة المصادر التاريخية.

وقد واصل بوشكين فى فترة الإقامة الجبرية فى ميخائيلوفسكى كتابه فصولاً من روايته الواقعية «يفجينى اونيجن». عايش بوشكين فى فترة تواجده فى ميخائيلوفسيكى أحداثا تاريخية هامة ما من شك أنها لعبت دوراً مؤثراً فى اهتمامه بالموضوع التاريخى، فقد كانت تلك الفترة هى الفترة التحضيرية للانتفاضة الديسمبرية التى كان من بين صفوفها العديد من أصدقاء بوشكين، وقد وقعت أحداث الانتفاضة وهو ما يزال فى ميخائيلوفسكى فى ديسمبر من عام١٨٢٥ فى إقامته الجبرية، وكان

لانكسارها وقع كبير على الشاعر، فقد هاله المصير الدرامى الذى آل إليه أعضاء الانتفاضة الذين كانوا يمثلون صفوة المجتمع النبيل فقد قتل البعض، ونفى البعض الآخر إلى سيبريا.

وفى محاولة لامتصاص رد الفعل الغاضب على التنكيل والنفى الذى حدث مع المشاركين فى الانتفاضة قرر القيصر إطلاق سراح الشاعر بوشكين من إقامته الجبرية فى ميخائيلوفسكى بهدف التظاهر باتخاذ خطوات ليبرالية من جهة، وحتى يضمن صمته من جهة أخرى، لا سيما وأن التحقيقات مع المشاركين فى الانتفاضة قد أوضحت التأثير الكبير لأشعاره على أعضاء الانتفاضة.

وفى طريق العودة من الإقامة الجبرية فى ميخائيلوفسكى إلى موسكو تعين على بوشكين أن يمثل أمام القيصر. وفى رد على سؤال وُجه إلى بوشكين من القيصر نيكولاى الثانى بصدد «أين كان سيتعين عليه التواجد فى يوم ١٤ ديسمبر (يوم الانتفاضة) لو أنه كان طليقا فى بطرسبرج؟ أجاب بوشكين «كنت سأكون بين صفوف المتمردين»(١٥).

وقد عبر بوشكين فى لقائه مع القيصر عن شكواه من مضايقات الرقابة، فما كان من القيصر إلا أن أعرب من جانبه بأنه «سوف يقوم بنفسه

(١٥) عن بيتروف «تاريخ الأدب الروسى فى القرن التاسع عشر»، موسكو، ١٩٧٠، ص ٢٠٢.

بدور الرقيب لأعماله، وقد كلف بوشكين بإعداد دراسة حول موضوع التربية القومية. وكان كل ذلك يستهدف من جانبه إثارة دهشة الشاعر بكرمه، ومن جهة أخرى للتعرف على صورة أفكاره»(١٦)

- ٦ -

عاد بوشكين إلى مسقط رأسه موسكو بعد فراق دام خمسة عشر عاما منذ أن رحل عنها لتلقى التعليم فى الليسيه، ثم تلى ذلك الخدمة الحكومية فى بطرسبرج، ثم سنوات المنفى، والإقامة الجبرية متنقلاً بين الجنوب وأوديسا وميخائيلوفسكى.

عاد بوشكين إلى أصدقاء الطفولة والصبا، وإلى حياة الأضواء فى مجتمع الصفوة، وإلى مسارح موسكو وصالوناتها الأدبية.

ورغم الشهرة الكبيرة التى حظى بها الشاعر فى تلك الفترة، إلا أن بوشكين «كان ملحوظا عليه قلق ما حزين، كان يعانى من شىء ما، ويسعى إلى مكان ما، وكانت الوصاية والحجر من جانب القيصر نيكولاى بافلوفيتش تثقل عليه وتخنقه. وذلك حسب شهادة واحد من معاصريه»(١٧).

---

(١٦) نفسه، الصفحة نفسها.

(١٧) عن ل. جافر يلوفا، بوشكين: حياته وإبداعه، موسكو، ١٩٨٩، ص ٣٠.

وبالإضافة إلى العامل الشخصى، فقد كان أيضا «يعذبه التفكير فى الأصدقاء، والإخوة، والرفاق الذين لقوا مصرعهم، وفى أولئك الذين كانوا يرزحون فى جحور الأشغال الشاقة، فى سيبريا، وكان ذلك يجثم فى ثقل على روحه»(١٨).

وتعد الفترة من ١٨٢٦-١٨٢٩ فترة لازدهار الشعر الغنائى فى إنتاج بوشكين والذى اتسم بتنوع الموضوعات بالقياس بغنائياته السابقة، وقد تطرق فيه إلى موضوعات الحب، الطبيعة، التاريخ، الموت، الحياة، والصداقة. وقد اكتست أشعار هذه الفترة بنغمات الحزن، واليأس، والحسرة المؤلمة وذلك فى إطار المناخ الاجتماعى العام، والنفسى الخاص الذى واكب كتابة هذه القصائد.

ويرتبط بإنتاج هذه الفترة مؤلفات بوشكين التى تناولت تصوير تاريخ القيصر بطرس الأول، فقد بدأ بوشكين فى عام ١٨٢٧ كتابة روايته التاريخية «عبيد بطرس العظيم» وهو المؤلف الذى قدره الناقد الكبير بيلينسكى تقديراً كبيراً بوصفه رواية «بارعة تصور طباع أعظم عصر فى التاريخ الروسى»(١٩)

---

(١٨) نفسه، نفس الصفحة.

(١٩) ف. بيلينسكى، المؤلفات الكاملة، جـ٧، ص ٤٨٨.

كذلك كتب بوشكين بؤئيما «بولتافا» (١٨٢٨) التى تعد محاولة من جانب بوشكين لتشييد البؤئيما الواقعية ذات الموضوع التاريخى، فقد صورت «بولتافا» أحداث معركة «بولتافا» التى قادها بطرس.

وبالإضافة إلى ذلك كتب بوشكين قصيدة «رباعيات» (١٨٢٦) وهى من وحى صورة بطرس أيضا. وقد كان لهذه المؤلفات أهميتها الكبيرة نظراً للمكانة المرموقة التى يحتلها القيصر بطرس الأول فى التاريخ الروسى، وبالنسبة لبوشكين نفسه الذى كان يعتبر «أن الشعب الروسى وهو يسير فى طريق تاريخى خاص به، قد شرع على طريق التنوير بفضل إصلاحات بطرس، وبذا كفل لنفسه إمكانية الحرية فى المستقبل»[٢٠]

- ٧ -

عُرفت السنوات التى أعقبت إطلاق سراح بوشكين من الإقامة الجبرية "بسنوات التسكع" فقد تميزت هذه الفترة بكثرة ترحال الشاعر وعدم استقراره، فقد كان يتنقل بين موسكو، وبطرسبرج، وميخائيلوفسكى هائما يستشعر هوة بينه وبين السلطة من جهة، وبينه وبين مجتمعه الأرستقراطى من جهة أخرى، إلى جانب إحساسه بعداء الكثير من الأدباء له، لقد كان الجميع فى فزع أمام الشهرة المتزايدة التى كان يكتسبها بوشكين يوماً بعد يوم فى هذه الفترة قرر بوشكين الزواج من الشابة الجميلة ناتاليا جونتشاروفا، حيث رفض طلبه فى المرة الأولى حين تقدم لها، ثم تمت الموافقة بعد ذلك.

---

(٢٠) عن س. بيتروف «تاريخ الأدب الروسى فى القرن التاسع عشر»، مرجع سابق، ص ٢٠٧.

ويرحل بوشكين فى عام ١٨٣٠ إلى صنيعة والديه فى بوردينو لترتيب أوضاعه للزواج.

ورغم قصر مدة إقامته فى بولدينو التى استمرت ثلاثة أشهر، فقد كانت هذه الفترة مثمرة بالنسبة لبوشكين على الصعيد الإبداعى، الذى تنوع فى هذه الفترة، فقد كتب بوشكين فى الشعر، والنثر، والمسرح، والأسطورة وأيضا الفصول الأخيرة من روايته الشعرية "يفيجينى أونيجن" التى استغرق كتابتها أكثر من ثمان سنوات.

كتب بوشكين فى هذه الفترة التراجيديات القصيرة "الفارس البخيل"، "موتسارت وساليرى"، "الضيف الحجرى"، و"وليمة فى وقت الطاعون". وقد اتسمت هذه الأعمال بالتحليل النفسى المعمق، وتطرقت إلى تجسيد المشاعر الإنسانية المتباينة التى تعكس معرفة بوشكين بمكنونات النفس البشرية ونوازعها. البخل، والجشع، والحقد، والحسد، والحب داخل الانسان والنفس البشرية تلك هى المحرك وراء شخصيات تراجيديات بوشكين القصيرة.

وقد ظهر فى التراجيديات القصيرة لفترة بولدينو موهبة بوشكين الفنان فى رسم الشخصيات، والصراعات الدرامية الحادة، والنفاذ إلى حياة الشعوب الأخرى، ففى تراجيديا "الفارس البخيل" يصور بوشكين عصرا ينتمى إلى القرون الوسطى المتأخرة، ويوضح نفاذ سلطة المال والذهب إلى

مجتمع الفرسـان الإقطاعى. وفى هذا الإطار يرسم بوشكين صورة للإنسان البخـيل الذى أعماه حب المال عن كل شىء حتى عن ابنه. إن نمط الفارس البخيل يتكشف فى تراجيديا بوشكين بوصفه ثمرة لعصر تاريخى محدد.

أما فكرة تراجيديا "موتسارت وسـاليرى" فهى مستـقاة عن روايات ترددت بصدد موت المـوسيقار المعروف مـوتسارت وعلاقة ذلك بموسـيقار آخر يدعى سـاليرى دفعه الحقـد إلى قتل موتسارت، وقـد قابل بوشكين فى مسـرحيـته بين شـخصـيتى مـوتسارت وساليـرى، حيث عكـس من خلال شخـصية مـوتسارت صورة للـعبقـرية الفنية الحقـة والفنان المستـقل، بينما جسـدت صورة ساليـرى مشـاعر الكراهية والحـقد. إن الفنان الحق - كـما تجـسد من خـلال صورة مـوتسارت - لا يـرضخ إلا لفنه، ومن هذه الزاوية فإن شخـصية موتسارت قد حـملت أصداء معاصرة، وتجاوبت مع مـشاعر بوشكين الفنان فـى مواجـهـته لـلسلطة القـيصـرية. وقـد اتجـه بوشكين فى تراجيـديا "الضيف الحـجرى" إلى قـصة دنجـوان التى صور على خلفـيتـها ملامح من الطباع وإنماط الحياة فى إسبانيا فى عهد النهضة.

و«يفـجـينى أونيـجن» هى رواية شـعـرية وتعـد من أشـهر أعـمـال بوشكين، وقد بدأ بها بوشكين طريق تطور الرواية الاجتمـاعية الكلاسيكية فى القـرن التاسع عـشر[٢١] و«يفـجينى أونيـجن» التى تعـتـبر قـمة إنتـاج

---

(٢١) سبق أن تناولنا بالتفصيل هذه الرواية فى كتابنا، مكارم الغمرى، الرواية الروسية فى القرن التاسع عشر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨١.

بوشكين فى ذات الوقت نقطة تحول فى إنتاجه رأى فيها الكثير من النقاد نزولا تجاه "شعر الواقع" وابتعاداً عن المواضيع العلوية. ومن جهة أخرى اعتبرت "يفجينى أونيجين" بمثابة منعطف فى طريق الأدب الروسى تمثلت فيه عملية التحول من الاتجاه الرومانتيكى إلى الواقعى، تلك العملية التى ميزت طريق تطور الأدب الروسى بشكل عام فى ثلاثينيات القرن الماضى، فقد أعطت هذه الرواية تصويراً للواقع المعاصر والشخصيات على نحو مغاير لما سبقها من روايات من جهة شمول الواقع أو الحياة، وفى الكثير من الأسس الفنية. ظهرت صورة يفجينى أونيجين فى ثوب واقعى جديد التحم فيه البطل بالواقع المعاصر وتجسدت به عملية تحول بوشكين تجاه الواقعية، ذلك التحول الذى بدا متمشيا مع متطلبات الواقع الجديد ما بعد انكسار انتفاضة الديسمبر بين حيث باتت أحلام الحرية المجردة التى ارتبطت بالمؤلفات الرومانتيكية غير مشبعة للاحتياجات الجديدة للحياة. وعلى امتداد فترة كتابة الرواية التى استغرقت ثمانى سنوات كان بوشكين شاهداً لتحركات الديسمبريين، ثم قيامهم بالانتفاضة التى لم تكلل بالنجاح، وربما لهذا يمكن تفسير الطابع الحزين لنهاية "يفجينى أونيجين" والذى يختلف عن نغمة البداية.

ويفجينى أونيجين الذى تحمل رواية بوشكين اسمه هو واحد من أبناء الطبقة النبيلة، شاب مثقف يمثل صفوة الشباب فى عصره والذى ينتمى إليه الشاعر نفسه.

ويرتبط بيفجينى أونيجين البطل الأول للرواية الخط المضموني الرئيسي لها والذى يصور قصته العاطفية مع النبيلة الأرستقراطية تايتانا التى تعيش فى إحدى الضواحى، إن تايتانا تقع فى حب أونيجين من النظرة الأولى، وهى تكتب له فى صراحة شديدة تبوح فيها بحبها. إلا أن حب تايتانا لا يجد صدى لدى أونيجين الذى يرد عليها بدوره يصارحها بحقيقة مشاعره.

وتمضى الأيام وتتزوج تايتانا نزولا على رغبة أهلها من نبيل إقطاعى وتنتقل للعيش معه فى العاصمة؛ حيث تتحول إلى واحدة من سيدات المجتمع الراقى.

ويظهر يفجينى أونيجين من جديد، ويلتقى بتايتانا الجديدة فتبهره بوضعها الجديد، ويتبدل شعوره تجاهها، فيصارحه بحبه المتأخر نحوها، إلا أن تايتانا الوفية لأسرتها ترفض هذا الحب رغم أن حبها القديم ليفجينى كان ما يزال بداخلها.

ويبدو للوهلة الأولى أن مضمون "يفجينى أونيجن" عاطفى بحت إلا أن الرواية قد أعطت إلى جانب الخط العاطفى تسجيلاً دقيقاً للحياة المعاصرة والإنسان المعاصر، فقد رسم بوشكين على خلفية المضمون العاطفى للرواية الملامح الاجتماعية والسياسية والمعيشية المميزة للعصر، حيث تنبسط أمام القارئ صورة للحياة فى بطرسبرج، وصورة لموسكو

وسكانهـا من النبـلاء، والقـرية الروسـيـة فى ظل الإقطاع، وحـيـاة الفـلاح البسيطة فى مقابل حياة الترف التى يعيشها النبلاء.

حاول بوشكـين من خلال صورة يفـجينى أونيـجن أن يصور جـيلا بأكمله من الشباب النبيل بما يحمله هذا الجيل من سمات مميزة.

إن أونيجن مـثل أبناء طبقـته تلقى تعليمـاً خاصـاً على أيدى أساتذة ومربيين فرنسيين، وهو رغم التعليم الخاص والثقافة المتنوعة يقضى وقته فى عبث، وتمضى حـياته فى سلسلة مـفرغـة من المتع الدينيوية، والحـياة الماجنة الصاخبة التى تفتقد الهدف، ويملؤها الملل.

ولكن أنَّى لمثل أونيـجن- الذى يصـفه الكـاتب "بالعقل الحـاد" لأن يكون غارقا فى الملذات والملل والنشاط؟ إن العلة - كما يوضح بوشكين - تكمن فى البـيـئـة المحيطـة به، والتى فرضـت على أونيـجن هذا النمط من الحياة.

إن أونيجن رغم كل حياة الترف التى يعيـشها لا يبدو سعيداً، وبات غير مبـال ببريق طبقته وحيـاتها الصاخبة، ويشعر بعـدم الرضى. لقد أصبح شعـور اللامبـالاة يسيطر على أونيـجن، وقد بعث ذلك الخـواء فى روحه، بالملل، وبات "إنسـانا زائداً" عن المجـتـمع، فقـد افـتـقد الهـدف، والعـمل، ومغزى الحياة، وأصبح يشعر بالغربة بين قومه وأهله.

لقد ارتبطت صورة أونيجن بسلسلة الأبطال الذين ظهروا فى الأدب الروسى الكلاسيكى فى القرن التاسع عشر، والذين لقبوا بلقب "الإنسان الزائد"، وبوشكين يكشف عن تراجيديا بطله فى تلك الأماكن التى يصور بها اصطدام المساعى الخيرة والنوايا الطيبة لاونيجن بواقعه المحيط، وكيف أن هذه المساعى كانت تتعارض مع عرف طبقته.

إن تراجيديا أونيجن تتعمق بعد قتله لصديقه العزيز لينسكى فى مبارزة أجبر على خوضها. إن قصة المبارزة هى من جهة أخرى تبرز فى الرواية كدليل على اتصال أونيجن وارتباطه بسلوك وعادات طبقته الارستقراطية، فقد أقدم أونيجن على مبارزة الصديق خوفاً من اتهامه بالجبن، وقد كان لهذه المبارزة أثر بالغ على نفس أونيجن، وبداية تحول روحى بالنسبة له، فقد وجد أونيجن نفسه قاتلا لأعز أصدقائه، ولذا فقد دفع ثمن ذلك غالياً، إذ فقدت نفسه السكينة والهدوء، فصار يرتحل هائماً على وجهه، واستولت عليه رغبة "تغيير الأماكن" بلا هدف، وبلا شعور.

وبوشكين فى "يفجينى أونيجن" بتصويره المتسع للواقع المعاصر ومأساة جيله، وفى عكسه للعالم الداخلى للأبطال وتصويره لنمط تفكيرهم وأسلوب معيشتهم، ومشاكلهم النفسية التى تبرز فى ارتباط وثيق مع البيئة المعيشية قد فتح بذلك طريقاً جديداً أمام تطور الأدب الروسى، ورغم أن بوشكين نفسه كان يرى "فرقاً شيطانياً" بين روايته الشعرية وفن الرواية إلا

أن يفجيني أونيجن أبرزت في تاريخ الأدب الروسي بوصفها «أول نموذج للرواية الواقعية في القرن التاسع عشر، وأول رواية كلاسيكية واقعية تمتزج فيها المزايا الجمالية العالية بالكشف العميق للطبائع الإنسانية وحتميات الحياة الاجتماعية». (٢٢)

ومن أهم الأعمال التي كتبها بوشكين في فترة بولدينو خمس قصص جمعها العنوان "قصص بيلكين"، وأيضا "قصة قرية جوريوخين"، حيث شيد بوشكين صوراً واقعية ولوحات من حياة النبلاء، والموظفين، والفلاحين الأقنان، بالإضافة إلى ذلك كتب بعض القصائد الغنائية والدراسات النقدية، وقد اتسمت "قصص بيلكين" بالمقدرة على النفاذ العميق إلى طابع الانسان، وغياب الميلودراما، وقدمت لوناً مغايراً للقصة العاطفية الإرشادية التي أخذت بدايتها من "ليزا المسكينة" لكارمازين، والتي كانت تهتم بتجسيد الصور المثالية التي شيدت لأغراض إرشادية بالإضافة إلى المضامين العاطفية.

لقد اهتم بوشكين في "قصص بيلكين" بالتقاط الأنماط الواقعية، وتجسيد اللوحات المعيشية المألوفة والتي تعكس مختلف مناحي الحياة، ففي "قصص بيلكين" نلتقي بمجموعة من الحكايات التي تروى على لسان الإقطاعي بيلكين الذي يخلع عليه بوشكين صفات التواضع، والبساطة.

---

(٢٢) عن تاريخ الرواية الروسية، موسكو - لينتجراد، ١٩٦٢، جـ١ ص ١٠٠.

وتعتبر "قصص بيلكين" لبوشكين بمثابة انعطافة تجاه معالجة صورة "الإنسان الصغير"، ونحو صدق التصوير وواقعيته والاهتمام بإدراج لغة الحديث فى القص. وتعد قصة "ناظر المحطة" وهى واحدة من «قصص بيلكين" من أهم قصص المجموعة فقد اقترب فيها بوشكين من معاناة الإنسان البسيط المهان بشكل جعل أديب كبير مثل مكسيم جوركى يعتقد بأن واقعية الأدب الروسى "تبدأ من هذه القصة بالذات"(٢٣).

لقد كانت فترة خريف بولدينو- بحق- فترة مثمرة فى إنتاج بوشكين أعطى فيها فصل الخريف المحبب إلى نفس الشاعر دفعة قوية لإنتاجه آذنت ببداية مرحلة جديدة فى تطوره.

-٨-

عاد بوشكين إلى الحياة فى مدينة بطر سبرج بعد زواجه فى عام ١٨٣١، والتحق الشاعر بالعمل فى هيئة الشئون الخارجية، كما سمح له بالعمل فى الأرشيفات على أمل أن يتمكن بوشكين من كتابة تاريخ بطرس العظيم.

كانت فترة إقامة بوشكين الأخيرة فى بطرسبرج مصدراً لمزيد من المعاناة فى حياة الشاعر، فحياة المجتمع العلوى تسبب له الألم، فضلا عن

(٢٣) عن د. بلاجوى، تاريخ الأدب الروسى، مرجع سابق، ص ٥٣٧.

الحاجة المادية المتزايدة لمقابلة النفقات التى تتطلبها مثل هذه الحياة والتى لم تكن تفى بها موارده المالية. والعلاقة بالقيصر مستمرة فى الشد والجذب، وعدم الثقة المتبادلة. أما الدوائر الأدبية فقد كانت تضيق عليه لا يرضيها استقلالية الفنان بداخله، والزوجة الشابة الجميلة لا تشاركه اهتماماته الأدبية، وتنغمس فى حياة المجتمعات العليا، تستأثر بجمالها إعجاب المحيطين بما فيهم القيصر نفسه، والديون والوشايا تحاصره وتسير به إلى النهاية المفجعة.

مع ذلك واصل بوشكين فى هذه الفترة مسيرته الإبداعية، وشيد العديد من الأعمال الهامة منها: مؤلفاته النثرية "ملكة البستونى"، "ليال مصرية"، "دوبروفسكى" "ابنة الآمر"، بؤيما "الفارس النحاس" بالإضافة الى بعض القصائد الغنائية، والأساطير، والتجارب الدرامية.

اتجه بوشكين فى رواية "دوبروفسكى" (١٨٣٢- ١٨٣٣) إلى موضوع الفلاح، وهو من الموضوعات الأثيرة بالنسبة للأدب الروسى الذى عايش معاناة الفلاح فى ظل نظام القنانة الذى استمر فى روسيا حتى عام ١٨٦١ حين إلغى نظام الرق، وتصور رواية "دوبروفسكى" لمحات من حياة الفلاحين الاقنان، وصور لإقطاع الضواحى فى فترة بداية القرن التاسع عشر، وتعكس لمحات من علاقة الأقنان بالإقطاع، حيث تمر إمام القارئ صور لمثلى الإقطاع فى تلك الفترة، وتبرز بين هذه الصور شخصية النبيل دوبروفسكى الذى حملت الرواية اسمه، وهو نبيل يخرج على عرف طبقته، ويبدو مناهضاً للعبودية والظلم الذى يلقاه الفلاح.

وتعتبر رواية "ابنة الآمر" امتدادا لموضوع الفلاحين والإقطاع فى صورة الرواية المكتملة، فقد اتجه بوشكين فى هذه الرواية إلى تصوير لقطات من تاريخ انتقاضات الفلاحين فى روسيا ارتبطت أحداثها بفترة السبعينيات من القرن الثامن عشر وارتبطت باسم زعيمها بوجاتشوف. عكف بوشكين على دراسة تاريخ الانتفاضة، كما عاين على الطبيعة مواقع الأحداث، محاولاً أن يلتقط من شهود العيان الباقين على قيد الحياة خيوطاً تساعده على نسج شخصيات روايته. وبالإضافة إلى ذلك اتجه بوشكين الى المؤلفات الأدبية التى صورت حياة تلك الفترة ولا سيما مؤلفات الكاتب فونفزين. ولم يشرع بوشكين فى كتابة رواية "ابنة الآمر" إلا بعد صدور عمله التاريخى "تاريخ بوجاتشوف" (١٨٣٣- ١٨٣٤).

عكست "ابنة الآمر" صورة ناصعة لانتفاضة بوجاتشوف حاول بوشكين من خلالها أن يكشف سير الحركة الشعبية على امتداد عشرات السنين المتتالية، والتى أدت فى النهاية الى انتفاضة (١٧٧٤- ١٧٧٥). وتتبوأ صورة بوجاتشوف زعيم الانتفاضة مكانة هامة فى الرواية، وقد جسد بوشكين من خلاله صورة الزعيم الذى يتسم بالموهبة والشجاعة، ويرتبط بالشعب فى مسيرته المناهضة لنظام القنانة.

وقد اتجه بوشكين فى روايته إلى تجسيد صورة الزعيم التاريخى بوصفه ممثلا لدوائر اجتماعية محددة وإطاراً تاريخيا بذاته مهد لظهور الانتفاضة وزعيمها.

وإلى جـانب ذلك أعطى بوشكين صـورة لعائلة الضـابط ميـرنوف وابنته ماشا التى جسد بها البساطة والصمود فى الأوقاف الصعبة.

وتعتبر بؤئيما "الفـارس النحاسى" (١٨٣٣) من الأعمال الهامة التى كتبـها بوشكين فى الفترة الأخيـرة من مسيرة إبداعـه. وقد اتجه بوشكين فى هذا المؤلف من جديد إلى صورة القيـصر بطرس العظيم وإلى الإصلاحات التى اتخذت فى عصره، وإلى الصرح العظيم الذى شـيده: مدينة بطرسبرج الجـميلة التـى تعبق أرجـاؤها برائحـة القديم، والـتى أحبـهـا الشاعـر بكل تناقضاتها، وأفراحها، وأحزانها.

-٩-

قبل مصرعه بفـترة قليلة تمكن بوشكين من تحقيق حلم راوده طويلا، ألا وهو السماح له بإصدار مجلـة أدبية، وقد صدرت المجلة فى عام ١٩٣٦ بعنوان "سفـر يمينك" (المعاصر) وصدر منهـا أربعة أعداد فى حيـاة الشاعر، وقد ظهرت على صفحاتها مـؤلفات جوكوفسكى، فيازيمسكى، ونيكولاى جوجول الذى كان ما يزال شابا فى تلك الفترة، وغيرهم من الأدباء.

إن عمل بوشكين فى هذه المجلة يقتـرب بنا من ملمح هام فى السيرة الأدبية لبوشكين؛ ألا وهو بوشكين الناقـد الأدبى، فقد ترك بوشكين العديد من الكتابات النقدية التى بلورت رؤيته تجاه قضايا فنية عديدة وجدت تعبيراً لها فى أعماله الأدبية[٢٤].

---

(٢٤) انظر دراسات بوشكين النقدية فى الجزء السابع من مؤلفات بوشكين الكاملة، لينجراد، ١٩٧٨.

ولعل فى مقدمة هذه القضايا يبرز موضوع الفن ودوره فى الحياة، إن الفن- حسب تصور بوشكين- لا يجب أن ينكفأ على ذاته وعلى معاناة الفنان، بل يجب أن يكون صدى للمعاصرة، دون أن يفقد خصوصيته الفنية، وقد أكد بوشكين هذا المعنى فى قصائده التى عبر فيها عن أفكار الديسمبريين، وعن قصائده التى تطرق فيها إلى دور الشاعر، ورسالة الفن مثل قصيدته "صدى" (١٨٣١).

ومن جهة أخرى طالب بوشكين أن يعبر الشاعر عن المضمون الاجتماعى بالوسائل التى تخص الشعر والفن، أى بلغة الفن الخاصة، ومن هنا يمكن فهم نقده لبعض أشعار الديسمبريين التى طغى فيها المعنى على الفن، وذلك كما جاء فى خطابه إلى الشاعر الديسمبرى ريليف بصدد أشعاره "أفكار"[٢٥].

ومع ذلك فإن ضرورة أن يتجه الشعر إلى المضمون الاجتماعى لا يعنى بالنسبة لبوشكين أن يفقد الفنان استقلاليته، ويخضع قلمه للسلطة، بل يجب عليه أن يحافظ على استقلالية الفنان بداخله، ولعل قصائد مثل "الى الشاعر" (١٨٣٠)، "السوق" (١٨٢٨) قد عبرت بجلاء عن هذا المعنى.

انطلق بوشكين فى دعوته إلى أهمية المضمون الاجتماعى فى الشعر من الفهم للأهمية الكبرى التى يجب أن يتبوأها الأدب فى عصره بوصفه

---

(٢٥) عن د. بلاجوى، من بوشكين، موسكو، ١٩٥٥، ص ١٤.

تعبيراً عن الفكر الاجتماعى، وعنصراً للتطور الروحى للأمة وتنويرها، ولهذا دافع بوشكين فى مثابرة عن "شعبية" الأدب التى عرفها بأنها: "المناخ، صورة الحكم، العقيدة تعطى لكل شعب وجهاً خاصاً، ينعكس إلى حد معين فى مرآة الشعر. توجد صورة للأفكار والمشاعر، توجد وفرة فى العادات، والاعتقادات التى تخص شعب ما بشكل استثنائى"(٢٦).

وقد لمست كتابات بوشكين النقدية الكثير من القضايا الأدبية الحيوية المعاصرة له، مثل القضايا المرتبطة بالمذهب الرومانتيكى، والمسرح، والنثر.

اجتذبت قضايا النثر اهتمام بوشكين منذ وقت مبكر، وقد حدد بوشكين المتطلبات الضرورية فى الكتابة النثرية:" الدقة، الإيجاز: ها هما أول فضيليان للنثر، إنه يتطلب الفكر والفكر، فبدونه لن يخدم التعبير شيئاً". (٢٧)

وقد جاء إنتاج بوشكين خير تأكيد لرؤاه النقدية، فقد تميزت كتاباته بالإيجاز، والدقة فى وصف الطبيعة، والمضمون الثرى، والفنية العالية، والشعبية، إن شعر بوشكين- كما يشير الناقد بيلنسكى بحق - يتميز "بالإخلاص بشكل مدهش للواقع، سواء تناول وصف الطبيعة الروسية، أو

---

(٢٦) أ. بوشكين، «عن الشعبية فى الأدب» المؤلفات الكاملة، جـ٧، لينتجراد، ١٩٧٨، ص ٢٨.

الطبائع الإنسانية الروسية، وعلى هذا الأساس فالصورة المعلنة. إنه شاعر روسى حق".(٢٨)

لم يتعارض "القومى" و"الشعبى" فى إنتاج بوشكين مع "رد الفعل العالمى"، فبوشكين هو حقيقة - كما قال عنه ببلينسكى نفسه- "شاعر عظيم لكل الشعوب، وكل العصور"، فالطبيعة الشاعرية لبوشكين "لم تكن حقيقة يغلفها شىء يمنعها من أن تستشعر المواطنة فى كل مجالات الحياة فى أى مكان فى العالم ومثلما تشعر فى دارها" (٢٩). إن بوشكين فى انتاجه يرحل بفنه إلى بلاد كثيرة فى الشرق والغرب، متمثلا فى هذا الانتاج السمات المميزة للشخصيات القومية، وملامح المكان.

لم يتوج بوشكين شاعراً قومياً فحسب، بل ومؤسسا للأدب الروسى الحديث، فقد "تمكن فى إنتاجه من عبور مشكلتين لم تكونا قد عبرتا من قبل، فقد جعل من الأدب مرآه للواقع، وإحدى القوى الروحية الرائدة فى حياة الشعب، كما أشبعه بالمضمون الاجتماعى التقدمى للفكر، وفى نفس الوقت، وبالتوازى أكد خصوصيته الأدب بأن نهض بالأدب الروسى إلى قمة الأدب الفنى الحق، والكلمة الفنية القومية"(٣٠).

---

(٢٨) ف. بيلينسكى، المؤلفات الكاملة، جـ٣، موسكو، ١٩٥٥، ص ٢٣٢.

(٢٩) المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٣٠) د. بلاجوى، فن بوشكين، (مرجع سابق)، ص٧.

كـانت إنجازات بوشـكين فى الكلمـة الفنية كـبـيرة، فـقـد تمكن فى مؤلفاته من إرساء أسس اللغة الأدبية الروسيـة الحديثة، واجتياز الفجوة التى تفصل بين اللغة الأدبية المكتوبة ولغة الشـعب الدارجة، فقد كانت المؤلفات الأدبية تكتب باللغة السلافـية الكنائسية المنفصلة عن اللغة الروسيـة الشعبية الحية، ثم بدأ تقريب لغة الكتب من لغة الحـياة فى عهد لومونوسوف (القرن الثامن عشـر)، ولا غرو إن كان بوشكين هو أحد رواد تحـديث اللغة الأدبية الروسية. وفى أول بؤئيـما رومانتيكية له "روسلان ولورمـيلا" فتح بوشكين الباب أمام عفوية اللغة الشعبـية، وتمكن من تشييد أكمل الأشكال الفنية فى إطار من البساطة، والدقة، والوضوح، والإيجاز المبدع.

ويعتـبر بوشكين نموذجاً للفنان الشـامل، والمبدع المجدد، فإليـه يعود الفضل فى إرسـاء بدايات وموضـوعات وضروب أدبيـة جديدة فى الأدب الروسى مـثل البؤئيـمـا الرومانتيكيـة، الرواية الشعـرية الواقـعيـة، القصـة الشعـرية، التراجيديـا الواقعية والدرامـا. وقد جسـد إنتاج بوشكين وبشكل عام مـنعطفات تاريخـية فى حـركة التـيار الأدبى فى روسـيا فى تحـوله من الكلاسيكية إلى الرومانتيكية، ثم بعد ذلك من الرومانتيكية إلى الواقعية.

-١٠-

وفى قـصيـدة "التـجـول بالطرق الصـاخبـة طولا" (١٨٢٩) كـتب بوشكين:

كل يوم، كل سنة
تعوددت أن أعايش بفكرى

ذكرى الموت العاصفة
وبينهما أحاول أن أحذر.
أين سيرسل القدر لى الموت؟
فى معركة، فى سفرة، فى الأمواج؟
أم أن الوهدة المجاورة
ستتلقى رفاتى الفاتر؟[٣١]

هل كان من قبيل الصدفة أن تـعبر موتيفة الموت فى أشعار بوشكين منذ بدايتها؟ وهل كـان هاجس الموت هو أحد أسباب اندفاعه نـحو مبارزة الموت؟ أم النبـوءة هى السـبب؟ لقـد أشيـر فى بعض الكتـابات إلى نبـوءة لعرافين تنبأوا لبوشكين بالموت بسبب "شاب طويل القامة أشقر"، كما أشير أيضا إلى أن بوشكين كان مولعاً بقراءة الطالع[٣٢]، أم أن السبب فى النهاية المأسـاوية لأكبـر شعـراء روسيـا يرجع إلى وشايات الطبـقة الراقـية وتآمـر القـيصـر؟ استـفسـارات كثـيـرة دارت وما تزال حـول ملابسـات مصـرع أ.بوشكين التى لـم يكشـف عنها فى وقتهـا، ورغـم مرور عشرات السنين منذ النهاية المأساوية لأكبـر شعراء روسيا الذى لقى مصـرعه فى مبارزة فى يناير

(٣١) أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، (مرجع سابق) جـ٣، ص ١٣٠.

(٣٢) أ. بوشكين فى ذكريات المعاصرين، (مرجع سابق)، ص ٥٦.

عام ١٨٣٧ إلا أن الجدل لم يتوقف حول تلك الواقعة المفجعة التى كان لها صدى كبير عند مواطنيه، واستوعبت على مدار عشرات السنين المتعاقبة بوصفها مأساة قومية.

انشغل العديد من الدارسين والباحثين فى انتاج بوشكين بدراسة الأحداث التى سبقت المبارزة والتى بدت أحداثها متسمة بالغموض، ولعل دراسة ب. شيجوليف "مبارزة وموت بوشكين" التى ظهرت عام ١٩٢٨ كانت من بواكير الكتابات فى هذا الموضوع.

بدأت خيوط المأساة تتجمع مع ظهور الفرنسى دانتس فى مجتمع الأضواء، والطبقة العليا فى بطرسبرج، حيث ساقته الأقدار ليلتقى بزوجة الشاعر بوشكين التى كانت تحظى "بنجاح كبير" فى مجتمع الصفوة الذى ظهر به دانتس.

كان «بوشكين» - رغم نصائح أصدقائه - قد تزوج من ناتاليا جونتشارفا قبل ذلك بخمس سنوات، وكانت شابة للغاية، وبلا ثروة، وجمال غير عادى، كان لها مظهر شاعرى، ولكنها كانت ذات عقل عادى، ولها شخصيتها، وقد احتلت منذ البداية فى مجتمع الصفوة مكانة لا تنازع تليق بمثل هذا الجمال"(٣٣).

أما "دانتس" فقد كان من الرعايا الفرنسيين رغم أن أجداده كانوا ينحدرون من أيرلندا، وكان والده قد حصل من نابليون على لقب بارون.

---

(٣٣) أ. بوشكين، المرجع السابق، ص ١٥٣.

وقد قدم «دانتس الشاب إلى روسيا وهو مزود بعدة خطابات توصية بهدف الالتحاق بالخدمة العسكرية، وكان يحمل بين هذه الخطابات خطاباً إلى الدوقة فيكيلمون التى كانت تحظى بمكانة خاصة لدى الإمبراطورة. ويعود إلى هذه المرأة فضل بداية نجاح دانتس فى روسيا، ففى إحدى امسياتها قدمت دانتس إلى الإمبراطورة، وكان من حظه أن جذب اهتمامها».(٣٤)

وقد تكررت لقاءات الحظ مع دانتس، فقد قابل القيصر نيكولاى فى "الارميتاج"، وكان القيصر قد سمع عنه من القيصرة، وانتهز دانتس الفرصة وطلب من القيصر السماح له بالالتحاق بالخدمة العسكرية، فأجابة القيصر إلى طلبه، وبناء على رغبة القيصرة ضُم إلى الخدمة فى الكتيبة الخاصة بالقيصرة.

ولأن دانتس كانت لديه موهبة أن "يحظى بالإعجاب فقد أُغرِم به البارون جيكيرين السفير الهولندى السابق فى بطرسبرج، وقد كان رجل ثرياً لم يقدر له الإنجاب فقرر تبنى دانتس"(٣٥)

تكررت لقاءات دانتس وزوجة الشاعر بوشكين فى حفلات المجتمع الراقى، وسرعان ما صار يعبر لها عن حبه بشكل مكشوف فى دائرة الأصدقاء الضيقة، وفجأة "تناسى أي وداعة تخص الإنسان العاقل، وخلافاً

(٣٤) المرجع السابق، ص ٣٦٤.

لكل قواعد اللياقة لمجتمع الصفوة بدأ يكشف أمام أعين المجتمع كله مظاهر الإعجاب غير المسموح بها على الإطلاق تجاه امرأة متزوجة"(٣٦).

وبدأت السعادة تنهار فى أسرة بوشكين بعد أن توالت خطابات بلا توقيع تصل إليه، وتربط فى استهزاء بين اسم زوجته ودانتس.

وازاء ملاحقة الشائعات، وكذا الخطابات التى كان يُرسل بعضها باللغة الفرنسية اضطر بوشكين أن يرسل استدعاء للمبارزة إلى دانتس الذى قبل الاستدعاء، وطلب بوشكين مهلة أسبوعين قبل المبارزة، وقد حاول أصدقاء الشاعر ومنهم الأديبان چوكوفسكى وفيازيمسكى أن يحولا دون قيام المبارزة وإصلاح الموقف، ولكنهما لم ينجحا فى ذلك.

وجاءت لحظة النهاية، وتم تحديد ميعاد المبارزة ومكانها، أما السلاح الذى سيستخدم فى المبارزة فقد تقرر أن يكون المسدسات. وكان اللقاء فى يوم ٢٧ يناير ١٨٣٧. وخر الشاعر جريحاً جرحاً مميتا فى المبارزة، ولفظ أنفاسه بعد يومين من المبارزة.

ولكن أين كان القيصر من كل هذه الأحداث؟ لماذا لم يصنع شيئا لإيقاف المبارزة؟

---

(٣٦) المرجع السابق، ص ١٥٣.

"إن القيـصر الذى كـان يعرف كل شىء. قـد بقى فى دور المراقب. "كـان من المنتظر من مـده أن تنهى المبـارزة وضعـهـما الحـرج - هكذا قـال القيصر فى فبراير ١٨٣٧ " (٣٧).

وشـيّع الآلاف جثـمان الشـاعر،"وعند ضـريحه كـان هناك تدفق لا يتوقف من الناس من كـل الجماعات التـى أتت لتنحنى أمام رفات الشـاعر الشعبى المحبوب"(٣٨).

وذهب الشاعر، أما الأشعار فقد بقيت "عزيزة على شعبه" وعلى كل من يقدس الكلمة الحرة الصادقة.

لقـد بقى إنتـاج بوشكين حـسب الوصـف البليغ للكاتب الـكبـيـر نيكولاى جوجـول "مثل شعلـة شاعرية ألقـيت من السماء، فـأضاءت هذه الشعلة الشعراء الآخرين، كما تُضاء الشموع"(٣٩).

(٣٧) عن س. ايراموفيتش، بوشكين فى عام ١٨٣٧، «ما قبل المبارزة الأخيرة»، لينينجراد، ١٩٨٩، ص ٢٦٢.

(٣٨) أ. بوشكين فى ذكريات المعاصرين، (مرجع سابق)، ص٦.

(٣٩) ن. جوجول «المؤلفات الكاملة، موسكو، ١٩٣٧-١٩٥٢، جـ٢ ص ٣٨٥.

هذه المختارات

تضم هذه المختارات جزئين:

فى الجـزء الأول مخـتارات من قـصائد بوشكين التى تناولـت موضـوعات الحرية، والعدالة، والشاعر والكلمة.

أما الجزء الثانى فيضم:

١- مقدمة وترجمة «نافورة باختـشى سراى» نموذجا للبؤيما الرومانتيكية فى إنتاج بوشكين، والمتحلية بالموضوع الشرقى.

٢- قصائد من وحى الشرق العـربى والإسلامى سبق أن تناولناها بالبحث والدراسة فى كتابنا المشار إليها آنفا.

أما غنائيـات بوشكين التى تناولت موضوعـات مختلفـة مثل الحب، الصداقـة والطبيـعة، الموت وغيـرها فسوف يخـصص لها الجـزء الثانى من المختارات.

شيدت لنفسى نصبا لم تصنعه يد*،

لن ينساه المد الشعبى،

يرتفع أعلى من الرأس العاصية

لنصب ألكسندر**

لا، لن أموت كلية، الروح فى القيثارة المقدسة

سيحيا رفاتى، ويفر العفن

سأبقى خالداً ما دام سيحيا

فى الحياة الدنيا شاعر واحد فحسب.

سينتشر خبرى فى روسيا العظيمة بأسرها،

وستنادينى كل لغة كائنة بها،

وحفيد السلاف الفخور، والفنلندى،***

والبربرى الآن التونجوس والكالميك **** صديق السهول

---

* قصيدة بوشكين التى اختير منها مقطعا، ليزين به نصبه التذكارى فى موسكو.

** بناه القيصر ألكسندر تخليدا لذكرى الانتصار فى الحرب الروسية النابليونية.

*** كانت فنلندا وقتها تابعة لروسيا.

**** التوجوز أقلية عرقية لها أصل منغولى، والكالميك بعضهم يعيش فى سيبيريا.

وسأظل طويلا عزيزا على وطنى
لأننى قد أيقظت بقيثارتى مشاعر طيبه،
ولأننى باركت الحرية فى زمنى القاسى
وناديت بالشفقة على الساقطين.

لأمر إلهى، آه يا ربة الشعر، كونى مطيعة،

لا تخافى ضيماً، لاتنشدى إكليلا.

تقبلى المديح والنميمة لا مبالية.

ولا تنازعى الأحمق.

الحرية (١٨١٧) *

اركضى، اختبئى عن الأعين،

أيتها القيصرة الضعيفة «تستيرى»!

أين أنت، أين أنت، يا عاصفة القياصرة،

يا منشدة الحرية الأبية؟

أقبلى، انزعى عنى الإكليل،

حطمى القيثارة المترفة...

أود أن أشدو بالحرية للدنيا،

وأن أذهل العيب فى العروش.

اكشفى لى الأثر النبيل

لذاك الجال** الرفيع،

---

* القصيدة منشورة فى المؤلفات الكاملة لبوشكين فى عشرة أجزاء، جـ١ ليننجراد، ١٩٧٧، ص ٢٨٣-٢٨٧. وفيما بعد سوف نعتمد على هذه الطبعة فى اختيار القصائد.

** «جال» المقصود هنا هو الشاعر الفرنسى الثائر إكوشار ليبرين (١٧٢٩-١٨٠٧).

لمن وسط المآسي المجيدة

أوحيت بالأناشيد الشجاعة.

يا أرباب المصير العاصف،

يا طغاة العالم! ارتعدوا!

أما أنتم، فتجلدوا وانصتوا،

انهضوا أيها العبيد الساقطون

هيهات! إلى أين أرنو بنظرى

سياط فى كل مكان، أغلال فى كل مكان،

عار مميت للقوانين،

دموع الأسر الواهنة؛

سلطة جائرة فى كل مكان

فى ظلمة الخزعبلات الكثيفة

تربعت: عبقرية العبودية العاصفة

والولع القدرى للمجد

فقط هناك فوق الرأس القيصرية

لم ترقد آلام الشعوب

حيث تقترن فى قوة بالحرية

المقدسة قوانين باطشة

حيث تنبسط على الجميع حريتهم القوية

حيث ينزلج سيفهم بلا خيار

على المواطن المضغوط

بيدين مغلولتين فوق الأعين المتكافئة

والجريمة من أعلى

تصرع بمدى متكافئ

حيث لم تظفر يداهم

لا بالبخل الشديد، ولا بالخوف

أيها الحكام! لكم الإكليل والعرش

يعطيها القانون- لا الطبيعة،

قفوا أنتم فوق الشعب،

لكن القانون الأبدى فوقكم

والويل، الويل للعشائر

حيث يغفو القانون بلا حذر

حيث سيادة القانون ممكنة

إما للشعب، أو للقياصرة

أدعوك شاهداً،

آه يا من تعذبك الأخطاء المجيدة

للأجداد فى صخب العواصف غير البعيدة

التى اثنت رأس القيصر

يصعد «لودفيج» إلى الموت

على مرأى السلالة الصامتة،

يحنى رأساً منزوعة

إلى النطع الدموى حانث القسم

تسقط البلطة الآثمة...

هذا وذاك الرداء الآثم

يرقد على الفِرنسه المغللين

أيها الحاكم الشرير

أمقتك أنت وعرشك

حتفك، موت الأطفال

أراه فى سعادة قاسية

أقرأ على جبينك

بصمة اللعنة الشعبية

أنت رعب العالم، عار الطبيعة،

أنت لوم الله على الأرض.

وحين تبرق نجمة منتصف الليل

على نهر النيفا الحزين

ويُثقل النوم الهادئ،

الرأس الخالية الهموم
يحدق المنشد المتأمل
النائم بين الظلمة عابساً،
فى النصب المقفر للطاغية،
القصر الملقى فى النسيان
ويسمع «كليى» صوتاً مريعاً
خلف الحوائط المريعة هذه
آخر ساعة «الكاليجولا» *
يراها فى حيوية أمام مقلتيه،
إنه يرى: فى الأوشحة والنجوم،
يسير القتلة المتدثرين
يغمرهم الخمر والحنق،
الوقاحة على وجوههم، والرعب فى القلب

---

* إمبراطور رومانى (القرن الأول) عُرف بالقسوة والبطش، وكان محاطا بالكره والمؤامرات التى انتهت بمصرعه.

يصمت الحارس غير الوفى،

جسر صاعد منكس فى صمت،

بوابات مفتوحة فى ظلمة الليل

بيد الخيانة المأجورة...

آه يا للخزى، آه من هول أيامنا!

كأنهم وحوش، اندفع الجند!

تسقط ضربات بلا مجد...

مات الشرير المقلد.

والآن، تعلموا، آه يا قياصرة:

لا العقاب، ولا الجزاء،

ولا دماء السجون، ولا المذابح

ليست سياجا وفيا لكم.

احنوا رءوسكم قبل الآخرين

أسفل الظل الآمن للقانون،

وستصبح حرية الشعوب وسكينتها

الحارس الأبدى للعرش.

إلى تشاداييف (١٨١٨) *

أترفنا لوقت قصير خداع

الحب، والرجاء، والمجد الوديع،

تلاشى لهو الشباب،

كأنه الحلم، كأنه ضباب الصباح،

لكن ما تزال تشتعل بداخلنا رغبة،

تحت وطأة السلطة القدرية،

بروح متلهفة

نصغى إلى نداء الوطن

ننتظر فى قلق أملاً

فى لحظات الحرية المقدسة،

مثلما ينتظر شاب محب،

لحظات اللقاء الصادق.

---

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، (مرجع سابق)، جـ١، ص ٣٠٧. وتشاداييف هو أديب، شارك فى الانتفاضة الديسمبرية.

ما زلنا نشتعل بالحرية،

ما زالت القلوب حية للشرف،

يا صديقى، فلنكرس الوطن

نفحات القلب الرائعة!

يا رفيق، صدق: ستبزغ هى

نجمة السعادة الآسرة،

وستنهض روسيا من النوم،

وعلى حطام الحكم المستبد

ستُكتب أسماؤنا!

السجين * (١٨٢٢)

اجلس وراء القضبان فى زنزانة رطبة
نسر يافع تربى فى الأسر،
رفيقى الحزين، يخفق بجناحه،
وينقر أسفل النافذة قُوتَه الدموى،

ينقر، ويلقى، وينظر من النافذة،
كما لو كان يفكر مثلى
ينادينى بنظرته وصياحه
ويود أن ينبس: «دعنا نطير!»

نحن طيور حرة، حان الوقت، يا أخ، حان الوقت!
إلى هناك حيث يبيضُّ جبل السحاب،
إلى هناك، حيث تزرق النواصى البحرية،
إلى هناك، نتنزه ريح فحسب.. أجل، أنا!..»

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ٢، ص ١٢٠.

فى عمق مناجم سيبيريا * (١٨٢٧)

حافظوا على الجلد الأبى

لن يضيع جهدكم الشجى

ورغبة الفكر الرفيع

شقيق التعاسة الوفية

الرجاء فى القبو الكئيب

سيوقظ النشاط والمرح،

ويأتى الوقت المنشود:

الحب والصداقة إليكم

سيصلا عبر المزاليج الكئيبة

حالما يصل صوتى الحر

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة (مرجع سابق) جـ٣، ص ٧٧.

إلى جحور أشغالكم الشاقة

ستسقط الأصفاد الثقيلة،

تهوى السجون: والحرية

ستلقاكم فرحة عند الدخول،

والإخوة سيعطوكم السيف*.

* كتب بوشكين هذه القصيدة للثوار الديسمبريين المعتقلين فى سيبريا واعطاها لزوجه الديسمبرى مورافيوف التى سافرت لزيارة زوجها.

القرية * (١٨١٩)

تحية لك، أيها الركن الخلوى،

مرفأ السكينة، والكد والإلهام

حيث ينساب سيل أيامى الخفى

فى حضن السعادة والنسيان

أنا ملكك: استبدلت بالبلاط المعيب «التسيريى»

وبالولائم الفخيمة، وباللهو، وبالضلال

الصخب المسالم لغابات البلوط، وهدوء الحقول،

والدعة الحرة، صديقة التأمل.

أنا ملكك: أحب هذه الحديقة المظلمة

ببرودتها وزهورها

هذه المروج تصفها أكداس القش العطرة

---

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ١، ص ٣١٨ - ٣١٩.

حيث تضبح الجداول فى الشجيرات،

أمامى فى كل مكان لوحات متحركة:

هنا أرى سهولاً سماوية لبحيرتين

حيث يبيض أحيانا شراع الصياد،

وخلفها بضعة تلال واشرطة الحقول،

وعلى البعد تتناثر بيوت ريفية

قطعان متجولة على الشواطئ الندية،

مناشف الحبوب الداخنة، طواحين باجنحة،

فى كل مكان آثار الراحة والدعة...

أنا هنا مُحرَّر من أغلال البهرجة

أتعلم أن أجد السعادة فى الحقيقة،

بروح حرة أهيم بالقانون،

لا أصغى لضجر الجمع الجاهل

أجيب بالعطف على الرجاء الخجول

ولا أحسد قدراً

لشرير أو أحمق: على علو لا يستحقه

يا قارئى طالع القرون، هنا أسألكم!

فى الخلوة الوقورة

صوتكم السار يسمع أكثر.

يطارد الحلم العابث للدعة،

يثمر حمية للعمل بداخلى،

وأفكاركم المبدعة

تنضج فى عمق الروح

لكن فكرة مفزعة، تكدر روحى هنا:

بين الحقول الزاهرة والجبال

صديق الإنسانية يلحظ فى شجن

عار الجهل المميت فى كل مكان.

دون أن يرى دموعاً، دون أن يسمع أنيناً

أناس يهلكون ينتقيهم القدر،

هنا سادة بربريون، بلا مشاعر، بلا قانون،

يستأثرون قهراً لأنفسهم على الكرمة،

والكد، والملك، ووقت الفلاح

ينحنى على محراث غريب، يخضع للسياط،

هنا عبودية تجرجر الهزيل تحت حكم

مالك لا يرحم.

هنا نير شاق يجذب كل شىء حتى اللحد.

ودون أن يجرأن على أن تصبو الروح للآمال والرغبات

هنا تزدهر الفتيات الشابات

من أجل لهو شرير بلا مشاعر.

الأبناء الصغار، رفاق الكد،

يمضون من كوخهم العزيز ليضاعفوا أنفسهم

حشود العبيد المعذبين فى خدمة الملاك.

آه، لو أن صوتى يقدر على أن يقلق القلوب!

لِمَ تشتعل فى صدرى حرارة عقيمة،

ولم يمنحنى القدر موهبة البليغ المتوعدة؟

فهل سأرى يا أصدقاء شعباً لا يظلم

وعبودية هاوية تأخذ بلب القيصر،

وهل سيبزغ فى النهاية فجر

الحرية المستنيرة فوق الوطن؟

الشاعر والجمع * (١٣٢٨)

PROCUL ESTE, PROFANI**

الشاعر بقيثارة ملهمة
كان يدندن بيد شاردة
كان يغني: أما الجمعُ الفاتر
المتعال غير العليم من حوله
فكان ينصت إليه بلا معنى.

وفسرت السوقه المتبلدة:
«لم يغنِ هكذا في طلاوة؟
عبثاً يذهل الآذان،
إلى أي هدف يقودنا؟
بماذا يطنطن؟ ماذا يعلمنا؟
لماذا يقلق القلوب، ويعذبها
مثل ساحر جامح؟

---

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ٣، ص ٨٥.

** اقتباس عن فرجيل.

كما الريح حرة أغنيته،

وفى المقابل عقيمة كما الريح:

فأى فائدة لنا منها؟»

الشاعر

فلتصمت أيها القوم التافه،

يا أجير، يا عبد الحاجة، والشواغل!

ضجرك الوقح لا أحتمله،

أنت دودة الأرض، ولست ابن السماء؟

الفائدة عندك فى كل شىء: بوزنها

أتقدر المعشوق «بيلفدير»*

لا تبصر النفع به، النفع.

لكن هذا المرمر إله! فماذا إذن؟

موقد البازلاء أثمن عندك:

لأنك تطهو الطعام لنفسك به.

السوقة

---

* تمثال لإله الفن.

لا، إذا كنت مختار السماء،

موهبتك، مبعوثة الإله،

فلتستغلها لصالحنا:

تصلح من قلوب الجمع.

نحن صغار النفس، ماكرون،

لا نخجل، أشرار، ناكرون،

نحن بالقلب كالخصيان الباردون،

وشاه، عبيد، حمقى،

تسكن العيوب بنا عمودا،

أنت تَقدِر! وأنت تحب القربى

على أن تعطنا دروساً شجاعة،

أما نحن فسنسمعك،

الشاعر

أُغربوا عنى، أى حاجة

للشاعر المسالم بكم!

تتجرون فى الفن فى شجاعة:
لن ينعشكم صوت القيثارة!
كريهون أنتم على النفس كالنعوش.
بسبب الحماقة والحنق، وحنقكم
ملكتم حتى الآن
السياط، والزنازن، والبُلَط،
كفى منكم عبيداً بلا عقل
في مدنكم، ومن طرقاتكم الصاخبة
يكنسون القمامة: جهد نافع!
ولكن بعد أن تناسوا خدمتهم،
المعبد والقربان
هل يأخذ الكهنة عندكم المكنسة؟
ليس من أجل القلق الدنيوى،
ليس من أجل المنفعة، ولا من أجل المعارك،
ولدنا نحن من أجل الإلهام،
من أجل الاصوات العذبة والصلوات

إلى الشاعر * (١٨٣٠)

أيها الشاعر! لا تحرص على الحب الشعبى
فسيمضى صخب لحظة المديح المبتهج،
ستسمع حكم الاحمق وضحك الجمع الفاتر:
لكن فلتبق أنت ثابتا، ساكنا، صارما.

أنت قيصر، فلتعش وحيدا، بالحرية الغالية
إذهب، إلى أين يجرك العقل الحر،
حسِّن ثمار الأفكار الحبيبة
دون أن تنشد جزءاً على المأثرة النبيلة.

هى بداخلك أنت. أنت حكم نفسك الأعلى
أنت تقدر على تقييم جهدك أكثر من الآخرين

---

* أ. بوشكين المؤلفات الكاملة، جـ٣، ص ١٦٥.

فهل أنت راضٍ عنه، أيها الفنان الحازم

أراضٍ؟ إذنفلتدع الجمهور يسبه

ويبصق على المحراب، حيث يتقد لهبك،

ويهتز حاملك المثلث فى رشاقة طفولية.

صدى * (١٨٣١)

أيزأر الوحش فى الغابة الصماء،
أينفخ فى الصور، أيدوى الرعد،
أتغنى الفتاة خلف الرابية
على كل نغمة
صداك فى الهواء الأجوف
تحدثه فجأة أنت.

أنت تصغى إلى قصف الرعد،
وصوت العاصفة والموجات العالية،
وصياح رعاة الريف
وترسل ردا؛
فما من جواب لك .... هكذا
أنت أيضا، أيها الشاعر!

---

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ٣، ص ٢١٤.

مختارات من «شرقيات»

بوشكين

نافورة «باختشى سراى» الشهيرة «بنافورة الدموع»

تعد بؤيما (القصة الشعرية) «نافورة باختشى سراى» من أهم مؤلفات ألكسندر بوشكين التى تعكس سمات الرومانتيكية فى فنه، وعلاقتها بالموضوع الشرقى فى إنتاجه.

«كم من العشائر الموجودة فى روسيا، المؤمنة برسالة محمد (ص) وتعمل فى مجال الخيال فى ملتقى يربطنا بالشرق. وهكذا فإن الشعراء الروس. دون أن يخرجوا خارج حدود وطنهم يمكنهم أن يعبروا من الأساطير الصارمة الكئيبة للشمال إلى الخيال الفخيم البراق للشرق[1].

بهذه الكلمات عبر الناقد سوموف عن قرب الشرق من التجربة الفنية للأدباء الروس وتأثيره عليها.

وها هى بؤيما «نافورة باختشى سراى» واحدة من هذه الأعمال الأدبية التى تشهد على تأثير خيال الشرق على الأدباء الروس، فقد كُتبت أشعارها بوحى من زيارة بوشكين لقصر «باختشى سراى» الموجود فى شبه جزيرة القرم التى زارها بوشكين وهو فى طريقه إلى المنفى.

---

(١) أ. سوموف، عن الشعر الرومانتيكى موسكو، ١٩٨٣، ص ٢٣.

اقترب بوشكين من حياة الشرق فى أكثر من زيارة له للقرم والقوقاز طلبا للاستشفاء، أو فى ظروف المنفى. لقد لعبت سنوات المنفى فى الجنوب، والرحيل إلى القوقاز والقرم وكشينيوف (١٨٢٠-١٨٢٣) دورا هاما فى التطور الفكرى والإبداعى للشاعر الكبير، فقد كان لتجربة المعايشة الذاتية للشعوب الشرقية التى تقطن هذه المناطق، والاحتكاك بالعارفين بتراثها أهمية كبيرة بالنسبة لإنتاجه، وخاصة إبداعاته المتحلية بالموضوع الشرقى. فضلا عن أهمية هذه الفترة بالنسبة للتكوين الفعلى لبوشكين، فقد كانت وقتا للعمل المثابر، التأملات، القراءات.

ويرتبط بفترة الإقامة فى الجنوب -وكما اشرنا آنفا- معظم إنتاج بوشكين من البوئيمات الرومانتيكية مثل «أسير القوقاز» (١٨٢١)، و«نافورة باختشى سراى» التى كتبها فى الفترة من عام (١٨٢١-١٨٢٣) وظهرت فى عام ١٨٢٤.

وقد أشار بوشكين بنفسه إلى ثراء تجربته الإنسانية فى تلك الفترة التى كانت بالنسبة له فترة «لخليط الازياء، والوجوه، والعشائر، واللهجات المحلية، والأوضاع»(٢).

وشبه جزيرة القرم التى زارها بوشكين كان يحكمها منذ القرن الخامس عشر سلالة خانات التتار، وكانت تضم فى عدادها الأراضى التتارية والمنغولية. ثم سقطت تحت حكم الأتراك فى نهاية القرن الخامس

(٢) أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، مرجع سابق، جـ٤، ص ١٤٥.

عشر، ثم وقعت بعد ذلك تحت سيطرة الإمبراطورية الروسية فى عام (١٧٨٣).

ومن وحى تاريخ خانات القرم كتب بوشكين قصته الشعرية «نافورة باختشى سراى» التى ظهرت فى نسيج فنى ثرى يجمع بين الذاتى والموضوعى، والأسطورى والتاريخى والغنائى.

ويرتبط مضمون القصة الشعرية «نافورة باختشى سراى» بأسطورة تتناقلها الأجيال فى شبه جزيرة القرم عن الخان التتارى جيريى الذى تمكن فى غزوة له فى بولندا من أسر الأميرة البولندية ماريا، ويقع الخان فى حب أسيرته الجميلة التى يحاول اكتساب حبها، إلا أن الأميرة تنفر منه، وتغرق فى حزن وأسى على فراق وطنها.

تراقب زاريما زوجة الخان الأثيرة محاولات زوجها اكتساب حب الأميرة البولندية، وزاريما فى «نافورة باختشى سراى» هى ابنة القوقاز الچورچية الأصل التى ساقها القدر إلى شبه جزيرة القرم لتنضم إلى حريم الخان.

وتحاول زاريما الحيلولة دون تعلق زوجها بالأميرة البولندية إلا أن محاولاتها تبوء بالفشل، فالخان يمضى فى حبه للأميرة البولندية ويزداد هياماً بها، مما يدفع بالزوجة زاريما التى تتملكها غيرة مجنونة إلى قتل غريمتها الأميرة البولندية لتنال بدورها الموت. وتخليدا لذكرى محبوبته

البولندية يقوم الخان بتشييد «نافورة باختشى سراى» التى اشتهرت باسم «نافورة الدموع».

-٢-

كثيرون مثلى،
زاروا النافورة هذه
... ...

يستهل بوشكين «نافورة باختشى سراى» باقتباس عن الشاعر سعدى مؤكدا على زيارته للموقع الذى جرت فيه أحداث مؤلفه، ورؤيته «لنافورة الدموع» التى أوحت إليه بعنوان «نافورة باختشى سراى».

استقى بوشكين معلوماته عن قصة الخان التترى والأميرة البولندية، وعن الإطار التاريخى للقصة من مصادر عدة، منها رواية رايفسكى الذى رافقه إلى رحلة القرم، وحكايات الرحالة، وبعض المصادر التاريخية التى تناولت حكم خانات التتار[٣].

أعطت المصادر التاريخية فرصة التعرف على ملامح من سيرة الخان كريم جيرى الأقرب من بين خانات التتار إلى صورة بطل «نافورة باختشى

* أشير إلى بعض المصادر التاريخية التى رجع إليها بوشكين مثل كتاب: «Histoire de Crimee» والذى ربما كان كتاب سيستريتتسيف «Haistoire de la Tauride» انظر المؤلفات الكاملة لبوشكين فى عشر اجزاء، جـ٤، ص ٤١٨، مرجع سابق.

سـراى»، وهو يبرز بوصـفه قـائداً بارزاً، وعـاهلاً اجتـماعـياً، ودبلومـاسيـاً محنكاً، فضلاً عن تمتعـه بقدر كبير من التعليم، والقوة الفيـزيائية. وقد شهد عصره حقبة من البناء والتعمير الذى يتسم بالفخامة والأبهة.

إلا أن ملامح صـورة الخان كريم جيـرى تختلف فى بعض جوانبـها التاريخـية والعسكـرية عن الصورة الفنية التى رسـمها بـوشكين. ويبدو أن بوشكين قد جمع فى صـورته الفنية ملامح متفرقـة من خانات القرم، وربما لهذا يمكن تفسير إطلاقه لقب العائلة «جيريى» على بطله، فجيرى هو اسم سلالة خانات القرم، وقد أشار بوشكين نفسه إلى أن جيرى «هو اسم سلالة كل خانات القرم»[٤]. غيـر أن التاريخى يتضح - على نحـو خاص - من خلال بث أريج العـصر التاريخى الذى خرجـت من بين جنباته الأسطورة، فقد حاول بوشكين أن يشيد فى «نافورة باخـتشى سراى» لوناً ووقتاً محدداً من الزمان؛ لذا نجد أن الخـلفية التاريخيـة المواكبة لصورة الخان تـتسم بالدقة فى رسم مناظر الطبيعة المميزة للقـرم، وفى إعطاء لمحات من الحياة السلمية لأهالى القرم.

وتشغل مناظر الطبـيعة فى بؤئيـمات الجنوب الرومانتـيكية - بشكل عام - مكانة كبيـرة، وهى ليست مجرد خلفية براقة، بل هدف كـامل القيمة

---

(٤) أ.د. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ٤ ص ٤١٨.

يعكس نهج الرمانتيكيين فى تجسيد الصبغة القومية، والملامح المميزة للمكان، وأيضا التمايز القومى للطابع الإنسانى.

وقد برع بوشكين فى إبراز هذا التمايز فى الطابع من خلال المقابلة بين شخصيتى زاريما زوجة الخان الچورجية والأميرة البولندية ماريا. فها هى زاريما الجنوبية ابنة القوقاز الچورجية تتميز بحرارة مشاعر أهل الجنوب، وبالتوقد فى الحركة، والغيرة العاصفة المدمرة.

ولدت زاريما فى چورجيا فى القوقاز فى ظروف الحضارة المسيحية (اتخذت چورجيا الديانة المسيحية فى النصف الأول من القرن الرابع فى شكل ديانة رسمية)، لكنها انتُزعت من موطنها فى القوقاز، ونقلت إلى القرم المسلم لتنضم إلى حريم الخان، لكنها أحبت الخان وتمكنت بفضل جمالها وتوهجها من أن تصبح زوجته الأثيرة إلى أن ظهرت الأميرة البولندية فى حياة الخان فانصرف عن حبها.

ويتضح طابع زاريما المتوقد - خاصة -فى لقطة اللقاء والمواجهة مع غريمتها البولندية، حيث يعكس حديث زاريما فورة المشاعر بداخلها، فهى تتحدث بلغة الرغبات والتوهج الداخلى فى تعبيرات متعجلة، مضطربة، متقطعة، لغة تعكس التوتر الداخلى والاضطراب.

وفى المقابل يرسم بوشكين صورة للبولندية ابنة الشمال التى لا تفهم لغة الرغبات التى تتحدث بها زاريما. إن جمال ماريا يصفه بوشكين

«بالهدوء»، و«البرود»، وطابع ماريا يعكس البراءة، والخجل، والتواضع. إنها حقا صورة رومانسية للفتاة الأوربية من القرون الوسطى! ويجسد بوشكين مأساة الأميرة الحزينة المنعزلة فى أسرها فى قصر «باختشى سراى» بعد أن عاد بها الخان من حملته على بلادها تاركاً وراءه الموت والدمار.

-٣-

الخان العاصف قهره حب ماريا الأسيرة، بات حزيناً، مهموماً، ساخطاً، إنه يتعذب لحب ماريا التى لا تبادله الحب. ورغم ما تتسم به ماريا من «جمال بارد»، إلا أنها قلبت حياة الخان رأساً على عقب، وبدلت طبيعية الطاغية، فقد هجر الحرب وملها، ولم يعد يدرى نفسه لماذا أحبها ونسى من أجلها حب زاريما وحريمه.

إن قصة حب الخان جيرى غير المتبادلة تحمل فى طياتها قصة حب مشابهة من طرف واحد عاشها الشاعر بوشكين نفسه فى فترة الجنوب، وفى هذا الملمح تتضح سمة هامة من سمات منهج بوشكين الرومانتيكى؛ ألا وهو المزج بين «الذاتى» و«الموضوعى»، والتعبير عن الذات فى البطل.

ورغم إعراض ماريا عن حب الخان جيرى، إلا أنه يشفق عليها ولا يقترب منها، ويعامل أسيرته فى نبل وسماحة كما أوصى القرآن بالأسرى. ونحن نرجح تأثر بوشكين فى تصوير قصة حب الخان التترى للأميرة البولندية بقصص الحب العذرى، ولاسيما قصة «مجنون ليلى».

ويرجح هذا الاحتمال الاهتمام الكبير الذى حظى به شعر الغزل العربى والفارسى فى أوساط الشعراء الروس فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضى» وهى الفترة المواكبة لظهور «نافورة باختشى سراى». وقد حاول بوشكين نفسه أن ينسج بعض القصائد على منوال قصائد الغزل العربية والفارسية.

وتعد قصة «مجنون ليلى» من أشهر قصص الحب العذرى فى الأدب العربى التى انتقلت إلى آداب عدة منها الأدب الفارسى؛ حيث تأثر بها شاعر الفرس الكبير سعدى فى «بستان» و«كلستان»، وقد أولع بوشكين ولعاً كبيراً بسعدي، وصدر «نافورة باختشى سراى» – كما أشرنا آنفا – باقتباس من سعدى.

بالإضافة إلى ذلك فقد قدم المستشرق بولديريف مقتطفات من ترجمة «مجنون ليلى» إلى الروسية فى مجلة «مخبر أوربا» فى عام ١٨١٨، وهى المجلة التى كان يطالعها بوشكين ورفاقه فى فترة دراسته فى الليسيه(٥).

إن قصة حب الخان للأميرة البولندية تتوازى فى خيوطها مع قصص الحب العذرى، فالخان العاصف الذى تعود أن ينال المتعة مع حريمه دون أن يكترث بالمشاعر، يلتزم العفاف والطهر فى حبه لماريا ويتألم لإعراضها عنه، وبعد موتها «يسكب الدمع الحار نهرا».

---

* عن د. لوبيكوفا، بوشكين والشرق، موسكو، ١٩٧٤، دار نشر العلم، ص٩.

إن هذه المثالية التى يخلصها بوشكين على حب جيرايى هى خير تعبير عن «عذوبة الحب» التى أوحى بها الشرق العربى إلى الشعر الرومانتيكى الاوربى، والتى أشار إليها بوشكين نفسه مؤكدا على تأثيرها: «هناك عاملان كان لهما تأثير حاسم على روح الشعر الأوربى هما: غزو العرب والحروب الصليبية، فقد أوحى العرب إلى الشعر بالنشوة الروحية وعذوبة الحب، والولع بالرائع والبلاغة الفخمة للشرق، واكسبه الفرسان الشهامة وبساطة الروح ومفاهيم البطولة وحرية الشعوب... هكذا كانت البداية الرقيقة للشعر الرومانتيكى.»(٦)

-٤-

«الرائع»، البلاغة «الفخمة»، «العذوبة» كلمات أطلقت على وصف الأسلوب الشرقى» فى الشعر الروسى. ويفسر الناقد الروسى فريدمان «الفخامة» فيصفها بأنها «كلمة تنتمى إلى جانب البصرى والصوتى للصور الفنية ويعنى قبل كل شئ «الثراء»، ومثل هذه الفخامة تمتزج عادة بالوقع السمعى الجميل للقصيدة، وعليه فإن «الاسلوب الشرقى للرمانتيكيين الروس يمكن تسميته ليس فقط بالفخم، بل أيضا «بالعذب» وفى المحصلة فإن المزج بين «الفخم» و«العذب» يجب أن يغمس القارئ فى جو من الرائع، الذى لا يشبه العادى فى شئ»(٧).

(٦) أ. بوشكين، عن الشعر الكلاسيكى والرومانتيكى المؤلفات الكاملة، مرجع سابق، جـ٧، ص ٢٥.

(٧) أ. فريدمان «الرومانتيكية فى إنتاج بوشكين» موسكو، ١٩٨٠، ص ١٠٢.

لقد تمثلت «الفخامة» بالنسبة لادباء الرومانتيكية الروسية فى استلهام الطابع الشرقى المتوقد، وفى تصوير نمط الحياة الشرقية، وطبيعة الشرق، وايضا فى اقتباس بعض عناصر «الأسلوب الشرقى» الذى تكثر به المقارنات والتشبيهات المقترنة بمفردات الحياة الشرقية، والمستلهمة عن عالم الشرق.

لذا فإن بوشكين ينتقى بعناية كبيرة مفردات اللوحة الشرقيبة البراقة فى «نافورة باختشى سراى» فزوجات الخان الجميلات يشبهن «الزهور العربية» وهى يحملن «شرباتا» شذيا، وكلمة شربات بالروسية قريبة. فى نطقها من العربية، ويسهر على حراسة الزوجات عبد خصى، يحفظ الأمانة كما أوصى القرآن، والقرآن يكتب بنطقه بالعربية، والعبد واعٍ لكيد النساء الذى حدثتنا عنه حكايات الليالى. وزاريما التى كان يعذبها انشغال زوجها عن حب الأميرة البولندية يشبهها بوشكين فى صمودها بالنخلة عروس المنظر الطبيعى العربى، ورمز الصمود أمام الزمن والعواصف، وزاريما حين تتوسل إلى الاميرة البولندية أن تترك لها زوجها الخان تستحلفها بالقرآن.

وتعكس «الأغنية التتارية فى «نافورة باختشى سراى» معرفة بوشكين بالتصورات الإسلامية، فالقرآن يبشر الشهداء بالجنة، حيث النعيم والحور الحسان، والناسك الزاهد تجازيه السماء خير الجزاء، فهو فى الكبر يزور مكة، وهى زيارة يرنو إليها المسلم ليستكمل أركان دينه.

إن البصمة الشرقية تظهر كذلك فى لوحات وصف طبيعة القرم غير المألوفة، وفى مشاعر الشخصيات، وفى الأسلوب.

إن «باختشى سراى» بشكل عام تعكس فخامة الألوان، والصور، والتصوير الشعرى لطبيعة القرم، وموسيقية القصيد وانسيابيته، وقد شاهد فيها الناقد الكبير بيلنسكى «خطوة إلى الأمام فى جانب الشكل. القصيد أفضل، الشعر أكثر فخامة، وأكثر أريجا»[٨] وقد ظهر بناء «نافورة بافتشى سراى» على شكل كادرات مستقلة يجمعها شريط الذكريات، وتتألف هذه الكادرات من قصص مستقلة منفردة، ومنتهية، يغيب فيها التعاقب الزمنى.

ونافورة «باختشى سراى» هى خير تجسيد للتركيبة «الشرقية الغربية» التى اشتهد بها انتاج بوشكين المتأثر بالشرق والذى يمزج فى براعة بين العناصر المستلهمة عن ثقافات الشرق وبين التقاليد القومية.

(٨) ف. بيلينسكى، دراسات ومقالات نقدية (١٨٤٣-١٨٤٨)، موسكو، ١٩٤٨، ص ٤٤٤

نافورة باختشى سراى *
(١٨٢١-١٨٢٣)

كثيرون مثلى،
زاروا النافورة هذه، لكن
البعض ما عاد موجودا، والبعض الآخر تجول أبعد.

سعدى

(١٨٢١-١٨٢٣)

كان جيريى يجلس، ويغض بصره،
نرجلية كهرمانية تدخن فى ثغره ،
الحاشية خانعة واجمة
تزاحمت حول الخان العبوس.
كل شىء كان ساكناً فى القصر،
وفى تبجل قرأ الجميع
علامات السخط والحزن
على وجهه المكفهر.
لكن الآمر المختال

---

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، مرجع سابق، جـ٤، ص ١٣١-١٤٥.

لوّح بيدٍ ملولة:
فانحنى الجميع، وانصرفوا عنه.

وحيد هو فى مخادعه
صدره يتأوه حرا اكثر،
جبينه الصارم ينتعش أكثر
قلبه يبدى قلقا.

ما الذى يهز الروح الشامخة؟:
أى فكرة تشغله؟
هل سيشن حربا جديدة على روسيا،
أم سيحمل شريعته إلى بولندا،
هل يشتعل بانتقام دموى،
أم اكتشف مؤامرة فى الجند،
هل يخشى شعوب الجبال،
أم دسيسة لجنوى* المخادعة؟

---

* أسس الجنويون الجنوبيون مستعمرات عند الشاطئ الجنوبى للقرم فى القرن الثالث عشر، واحتفظوا بحقوقهم حتى عام ١٤٧٥ حين حط الأتراك، وحطموا كل المستعمرات فى القرم التابعة لجنوى.

لا، فقد ملّ المجد المشين،

كلت يده العاصفة،

الحرب بعيدة عن الفكر.

أحقاً خيانة فى حريمه

وسارت فى طريق آثم،

ابنة الرق والأسر

وسلمت قلبها لجياور؟

لا، فزوجات جيريى الخجليات

لايفكرن، ولايجسرن على الرغبة،

يزدهرن فى هدوء شجى،

فى حراسة يقظة فاترة

فى أحضان الملل الكئيب

لايقترفن خيانة

في ظل زنزانة حافظة

مخفى جمالهن:

هكذا الزهور العربية

تعيش خلف آنية مكنونة.

تمر عليها الأيام، والشهور، والصيف

في وتيرة كئيبة

ودون أن يشعرن

يذهب الشباب، والحب وراءهن

كل يوم رتيب،

والساعات تنساب في بطء.

الكسل سيد الحياة في الحريم:

المتعة نادراً ما تلوح.

الزوجات الشابات بطريقه ما،

وهن يرغبن في خداع القلب

يغيرن الحلى الفاخرة،

يقمن اللهو، والأحاديث.

أو فى صخب المياه الحية

فوق تيارها البراق،

فى قرة الأشجار الكثيفة

يتنزهن فى أسراب خفيفة.

يسير بينهن خصى حانق،

عبثاً الفكاك منه:

فنظرته الغيورة وسمعه

يتعقبهن جميعاً دائماً.

بجهده استقر

نظام أبدى. رغبة الخان

ناموسه الوحيد،

وصية القرآن المقدسة

يرقبها فى حراسته.

روحه لاتنشد حباً؛

كالصنم، يتحمل

الازدراء، الكره، اللوم،

إهانات العبث القبيح،

السخرية، الرجاء، النظره الخجلى،

والتنهيدة الهادئة، والمثملة الفاترة.

معلوم له طبع النساء،

فقد ذاق قدر مكرهن

وفى العتق، وفى الأسر

النظرة الحانية، ودمعة اللوم الخرساء

لا سلطان لها على روحه،

فما عاد يصدقهن بعد.

ما إن بسطن شعورهن

حتى سارت الأسيرات الشابات

ليسبحن فى الساعات الحارة،

وتنهمر أمواج العيون

على جمالهن الساحر،

لهوهن لا تفارقه الحراسة،

هو هنا، هو يرى، لا مبالٍ،

لسرب الحسناوات العاريات؛

هو بين الحريم فى ظلمة الليل

يتجول بخطى غير مسموعة

يخطو فى هدوء بالأبسطة،

يسترق السمع للأبواب المذعنة،

ينتقل من مقصورة إلى أخرى

فى شاغل أبداً، يرقب

الرقاد الفاخر لزوجات الخان،

ينصت إلى لعثمة الليل،

الزفرة، التنهيدة، أدنى خلجة،

يلحظ كل شىءفى لهفة:

وحزن تلك التى نادت

اسماً غريباً بهمس ناعس

أو صديقة عطوفة أمنها

خواطر معيبة!

لما يمتلئ عقل جيرى بالحزن؟

هل خبا الشبق من يديه

لايتحرك ولا يجرؤ على التنفس،

الخصى ينتظر إشارة عند الباب.

ينهض الآمر متروياً،

أمامه الباب على مصراعيه، صامتاً

يسير إلى سكنه المحبوب

لزوجات كن من قريب عزيزات

ينتظرن الخان خاليات الوفاض

حول النافورة المداعبة

على الأبسطة الحريرية

جلسن فى جمهرة رشيقة

ينظرن فى سعادة طفولية،

إلى سمكة تتهادى فى العمق الصافى

للقاع المرمرى.

عمداً أسقط بعضهن لها

فى العمق أقراطاً ذهبية.

بينما حملت الأسيرات حولها

شرباتاً شذياً

وبأغنية رنانة شجية

شدا الحريم فجأة كلهن:

أغنية تاتارية

-١-

تهب السماء الإنسان

عوضاً عن الدموع والبلاء الدائم:

فالناسك الناظر إلى مكة

محظوظ فى سنوات الشيخوخة الحزينة.

-٢-

محظوظ من يضئ بموته

شاطىء الدانوب الأغر

فإليه تهرع حورية الجنة

وتلقاه ببسمة راغبة.

-٣-

لكن ذاك أكثر حظاً، آه يا زاريما،

من كان محبا للدنيا والنعيم،

فلطفك يا عزيزتى، كوردة

فى هدوء الحريم..

هن يشدون. لكن أين زاريما

نجمة الحب، زينة الحريم؟

وآسفاه، حزينة وشاحبة

لاتنصت لإطراء،

باتت كنخلة ذوتها عاصفة؛

لاشيء، لا شيء عزيز عليها:

كف جيريى عن حب زاريما.

خانك!... لكن من

يا چورچية تضارعك الجمال؟

حول الجبين الناصع

عقدت جديلتك مرتين،

عيناك الساحرتان

أصفى من النهار، وأحلك من الليل.

يا من صوتك أحلى تعبير

عن نفحات الرغبات النارية

أى قبلة حادة انعش

من لثماتك اللاذعة؟

كيف للقلب العامر بك

أن يخفق للجمال الغريب؟

لكن جيريى اللامبال القاسى

ازدرى حسنك

وساعات الليل الباردة

يقضيها كئيباً، وحيداً

من وقت سجنت فى حريمه

الأميرة البولندية.

من وقت غير بعيد شاهدت

الشابة ماريا سماوات غريبة،

من وقت غير بعيد ترعرع

جمالها الجذاب فى بلدها ،

كان الوالد العجوز يفاخر

بها، ويناديها مهجتى.

رغباتها الطفولية

كانت ناموساً للعجوز.

كان يدرك شاغلاً وحيداً،

أنِ يكون نصيب الابنة المحبوبة

ناصعاً كيوم ربيعى،

وأن لا تكدر روحها

لحظات حزن

وأن تتذكر فى رقة

حتى فى زواجها

وقت الشباب، أيام اللهو،

التى مضت كما الحلم الرقيق،

كل شىء فتان بها: الخلق الهادئ،

الحركات الممشوقة، الحية

والمقلتان السماويتان الفاتنتان

هبتا الطبيعة العزيزة

بالفن كانت تزين،

حفلات الدار

وتبهجها بقيثارة سحرية،

حشد الوجهاء والأثرياء

كان ينشد يد ماريا،

ومن أجلها رزح شباب كثير

فى ألم مكتوم.

لكنها فى صمت الروح

لم تكن قد عرفت الحب

ووقت الفراغ الحر

تكرسه للهو وحده

مع الصديقات فى قصر الوالد

أمن مدة؟ أم ماذا يا ظلمات التتار

تدفقت نهراً على بولندا:

ليس بهذا القدر من السرعة المريعة

ينتشر الحريق بالحصاد من كل صوب.

تيتمت الناصية المزدهرة،

تلاشى لهو السلم،

واكتأبت القرى وغابات البلوط،

وخلا القصر الفخيم.

حجرة ماريا المضيئة ساكنة...

وفى الكنيسة العامرة، حيث حولها

يهجعون فى عزة، فى سبات قر،

مع التاج، والشعار الأميرى

شُيدت مقبرة جديدة...

الوالد فى القبر، والابنة فى الأسر

الوريث المقتر يحكم القصر

وبالنار المضنية يذيق

الهوان للبلد الخرب.

.

وآسفاه قصر باختشي سراي

يوارى الأميرة الشابة.

وهى تذوى فى أسر صامت،

تبكى ماريا وتحزن.

جيريى يشفق على البائسة:

انكسارها، دموعها، أنينها

يقلق الخان نومها القصير،

فيخفف من أجلها

أعراف الحريم الصارمة.

حارس زوجات الخان العبوس

لا يدلف إليها لانهاراً، ولا ليلاً:

لا يرفعها بيد معتنية،

إلى مقصورة النوم،

لا يجرؤ على التطلع إليها

بنظرة عينيه المهانة،

هى فى حوض استحمام خفى

وحيدة فى أسرها،

الخان نفسه يخشى الفتاة الأسيرة

وإثارة الهدوء الشجى،

للحريم فى العزل البعيد

مسموح لها الحياه وحيدة:

ويتراءى فى هذه العزلة

شخص ما غيبى يتخفى.

هناك ليلاً ونهاراً يتقد مصباح

أمام وجه الفتاة الطاهرة

سلوى الروح الملتاعة،

هناك الرجاء فى السكون

يعمر بإيمان وديع،

ويذكر القلب بكل شيء

بالجانب القريب الأفضل...

هناك تسكب الفتاة الدمع

بعيداً عن الصديقات الحسودات

وبينما يغرق كل شيء

حولها من ترف مجنون،

بمعجزة يخفى الركن

السالم الطاهرة الصارمة.

هكذا القلب ضحية الأخطاء،

بين النعيم المعيب

يحافظ على أمانة واحدة،

الشعور الإلهي وحده

* * * * *

* * * * *

حلّ الليل، واكتست بالظل

حقول تافريدا العذبة،

على البعد أسفل ظل الغار الساكن

أسمع شدو البلبل،

يسطع القمر خلف جوقة النجوم،

من السماوات الصافية

يصوب ضياءً فاتراً

على الوديان، والتلال، والغابة.

وهن مغطات بطرح بيضاء،

يترائين مثل ظلال خفيفة،

في شوارع باختشي سراي

من منزل إلى منزل، الواحدة إلى الأخرى،

تتعجل الزوجات والازواج بسطاء التتار

ليتشاركوا أوقات المساء.

سكن القصر، غفا الحريم

يلفه ترف مريح،

لا يقطعه شيء

سكون الليل. الحراسة موثوقة،

لف الخصى طوفته.

هو الآن نائم. لكن خوف المُجد

يقلق بداخله الروح النائمة

توقع خيانة التعيسات

لا يعطى العقل سكنية

فتارة ثمة حفيف، وتارة همس،

وتارة يخال له صياح،

مخدوعاً بصوت خاطئ،

يستيقظ، يرتجف،

يرهف سمعه المذعور...

لكن كل شيء صامت حوله.

النوافير وحدها صوتها عذب

تتدفق من غياهبها المرمرية،

تغنى البلابل فى الظلام

ولا تفارق الوردة الحبيبة،

الخصى لا يزال ينصت إليها طويلاً،

ومن جديد يكتنفه النوم

كم هو جذاب الجمال المبهم

لليالى الشرق الفاخرة

كيف تنساب الساعات

أمام عشاق الرسول

أىُّ ترفٍ فى ديارهم،

فى الحدائق الساحرة،

فى هدوء الحريم الآمن،

حيث وحى القمر

يملىء كل شىء بالأسرار والهدوء

وإلهام الرغبات العذبة!

* * * * *

الزوجات جميعهن نائمات. لا تنام واحدة تتنفس

في صعوبة، تنهض،

تسير، بيدٍ متعجلة،

فتحت الباب، في ظلمة الليل

تخطو بقدم خفيفة...

في غفوة مرهفة مذعورة

يرقد الخصي الأشيب أمامها

آه، القلب بداخله لا يلين:

خداع النوم سكينته!..

وكما الشبح، تمر بجانبه

* * * * *

أمامها باب. بحيرة

يدها المرتجفة

لمست المغلاق الصائب

دخلت، تتطلع فى دهشة...

وخوف مبهم تسلل إليها

ضوء مصباح منفرد،

برواز، يضيئ فى حزن،

الوجه الوديع للفتاة الطاهرة

والصليب رمز الحب المقدس،

يا چورچية! كل شىء أوقظ

فى نفسك شيئا ما عزيزا

كل شىء تمتم فجأة بلا وضوح

بنغمات الأيام المنسية

أمامها رقدت الأميرة،

خداها يتتعشان

بحرارة حلم العذارى

والدمع يترك اثراً نديا،

ويلوحا ببسمة مثقلة،

مثلما ينير ضوء القمر

زهرة أثقلها المطر،

بعد أن هبط ابن آدم من السماء

بدا، الملاك هاجعا

و، سكب الدمع غافيا

على أسيرة الحريم البائسة...

وآسفاه، زاريما، ما خطبك؟

ضاق الصدر بحسرتها

تنحنى الركبتان عفويا

وتبتهل: "لطفاً بى،

لا تنبذ دعواتى!..."

كلماتها، حركتها، أنينها

قطعت نوم الفتاة الهادئ.

الأميرة بخوفها إزاء النفس

ترمق الشابة الغريبة

في حيرة، وبيدٍ مرتجفة

وهي تنهضها، تقول:

"من أنت؟ وحدك في وقت الليل؟

لِمَ أنت هنا؟" "جئت إليك،

انقذيني، من مصيري

بقي لي أمل واحد فيك...

تمتعت بالسعادة طويلاً،

كنت خالية الوفاض أياماً وراء أيام...

وانقضى ظل النعيم،

إنني أهلك. انصتي لي...

لم أولد هنا، بعيداً،

بعيداً... لكن ظواهر الأيام الماضية

حتى الآن محفورة عميقاً في ذاكرتي.

أتذكر الجبال الممتدة إلى السماوات،

الجداول الحارة فى الجبال،

غابات البلوط الكثيفة،

شريعة أخرى، طباع أخرى،

لكن لماذا، بأى مصير

تركت ناصيتى وموطنى؟

لا أعرف، أذكر البحر وحده

وشخصاً فى علو

فوق الشراع...

الحزن والخوف،

حتى الآن، كانا غريباً على،

فأنا فى سكينة آمنة

ترعرعت فى ظل الحريم

وانتظرت بقلب مذعن

تجارب الحب الأولى.

رغباتى الخفية

تحققت. جيربى لأجل نعيم السلم

ازدرى الحرب الدموية،

وقطع هجماته الوحشية

وتطلع من جديد إلى حريمه

وأمام الخان فى انتظار مبهم

مثلنا نحن. وبنظرة مشرقة

توقف فى صمت عندى

ونادانى... ومن وقتها

ونحن فى نشوة لا تنقطع

نتنسم السعادة، لم تكدرنا مرة

لا نميمة. ولا شك

ولا عذاب غيرة خانقة

ولم يعكرنا ملل.

ماريا، أنت ظهرت أمامه...

وهيهات، روحه من وقتها

كدّرها فكر آثم!

جيرى وهو يتنسم الخيانة،

لا ينصت إلى عتابى،

يضايقه أنين القلب،

لا يجد معى.

لا المشاعر السابقة، ولا الأحاديث

أنتِ لستِ شريكة الجرم،

أعرف، ليس ذنبك.

إذن، اسمعى، أنا مليحة

أنت وحدك فى الحريم بأسره

أمكنك أن تكونى خطرة علىّ،

لكنى ولدت للرغبة،

وأنت لا تقدرين على الحب مثلى

فلمَ تقلقين القلب الضعيف

بالجمال البارد؟

دعي جيربي لي؛ فهو ملكي،

قبلاته تلتهب بي

أقسم لي أيماناً قوية،

من زمنٍ، الأفكار كلُّها، الرغبات كلُّها

يشاركني فيها جيربي...

تقتلني خيانته...

إنني أبكي، أترين، أُحنّي

الآن ركبتاي أمامك

أبتهل، دون أن أجرؤ على لومك

امنحيني البهجة والسكنية،

امنحيني جيربي السابق...

لا ترفضي شيئاً لي،

هو ملكي، هو مبهور بك،

بالا زدراء، بالرجاء، بالملل،

بما تشائين أعيديه إلىّ،
اقسمى (ولو من أجل القرآن
فقد نسيت بين أسيرات الخان،
دين الأيام السالفة،
لكن دين أمى
كان مثل دينك) اقسمى لى به
بأن تعيدى لزاريما جيرى
لكن اسمعى: أن توجب
نحوك... فأنا أملك خنجراً،
وولدت قرب القوقاز».

ما إن قالت، اختفت فجأة. وراءها
لا تجرؤ الأميرة على التعقب،
الفتاة البريئة لا تفهم،
لغة الرغبات المضنية،
لكن صوتها واضح فى إبهام،

غريب عليها، مخيف لها

أى دموع وابتهالات

تنقذها من الهوان؟

ماذا ينتظرها؟ احقاً ستقضى

بقايا أيام شبابها المر

رهينة مهانة؟

آه يا إلهى! لو أن جيرى

نسى التعيسة أبدا

فى زنزانتها البعيدة

أو قطع أيامها الكئيبة

بنهاية سريعة!

لكم ستكون سعادة ماريا

بمغادرة الدنيا الحزينة!

لحظات الحياة الغالية

مضت من مدة، ليست موجودة من مدة!

ماذا عساها صانعة في براري الدنيا؟

لقد أزف وقتها، يترقبون ماريا،

وفي السماوات في علو الدنيا،

ينادونها بابتسامة قريبة.

* * * * *

مضت الأيام، ما من ماريا

ماتت للتو اليتيمة.

صارت من زمن ضوءاً منشوداً

كأنها ملاك جديد. أضاءت

لكن ما الذي قادها إلى الحتف؟

أحسرة الأسر اليائسة،

مرض، أم شر آخر؟

من يدري، ماريا الرقيقة ليست موجودة!..

خلا القصر العتيد،

هجره جيربى من جديد

مع حشد التتار إلى الحد الغريب،

وجّه هجمة شرسة من جديد،

هو من جديد فى العواصف الحربية

يندفع مكفهرًا، متعطشاً للدماء:

ولكن فى قلب الخان مشاعر أخرى

يتوارى لهب حزين.

هو عادة فى قتال قدرى

يرفع السيف، وبكل قواه

فجأة يبقى بلا حراك

يحملق حوله فى جنون،

يمتقع، كأنه يفيض ذعراً

يهمس بشىء ما، وأحيانا

يسكب الدمع الحار نهرا.

الحريم المنسى، المستكين،

للاستهانة لا يشاهد وجهه

هناك، قدر عليهن العذاب

تحت حراسة الخصى الفاتر

تهرم الزوجات. بينهن

لا توجد الچورجية، فقد

قذفها حرس الحريم الأخرس*

فى لجة الماء.

فى تلك الليلة، ما إن ماتت الأميرة

حدث إيضا عذابها،

وأيا كان الذنب،

فقد كان العذاب فظيعا!

كاسحا بنيران الحرب

بلاداً قريبة من القوقاز

* كان من العادات التركية التى أخذها التتار هى صمت الخدم أمام السادة، ومن هنا يمكن فهم الوصف «الأخرس».

وقرى روسيا الآمنة،

عاد الخان إلى تافريدا.

وتخليداً لماريا الحزينة

أقام نافورة مرمرية

فى طرف القصر المنعزل.

يظلل أعلاه بشكل معقوف

الهلال المحمدى

(رمز، بالطبع جسور

لذنب هين غير معروف)

يوجد إهداء: السنوات القارصة

لم تنل منه بعد.

وراء ملامحه الغريبة.

يخر الماء فى المرمر

ويقطر بدمعٍ بارد،

دون أن يسكن ابداً

هكذا تبكى الأم فى أيام الحزن
ابنها شهيد الحرب.
البنات الشابات فى تلك البلاد
عرفن الحكاية القديمة،
فسمين النصب الحزين
نافورة الدموع.

ما إن غادرت الشمال أخيراً،
ونسيت المآدب طويلا،
زرت باختشى سراى
القصر الغافى فى النسيان.
بين الممرات الصامتة
تجولت هنا، حيث جلاد الشعوب
التترى العاصف كان يقيم ولائمه
وبعد أهوال الغارة

كان ينعم بالكسل الفخيم.

ما يزال لوقتنا يتنسم ترفا

فى السكينة الخالية والحدائق،

تلهو المياه، تزهر الورود،

وتتعرج كرمات العنب،

وتبرق ذهبية على الجدار.

شاهدت المشربيات المتداعية

من خلفها، فى ربيعهن،

وهن يفرزن سباحهن الكهرمانية،

كانت الزوجات تتنهد فى سكون.

شاهدت مقبرة الخان،

دارة الحاكم الأخيرة.

أعمدة الضريح هذه،

تكللها عمامة مرمرية

بدت لى، وصية القدر

تقول قولاً جلياً.

أين توارى الخانات؟ أين الحريم؟

كل شيء حولنا هادئ، كل شيء شجى

كل شيء تبدل... لكن ليس بذاك

الذى امتُلئ القلب به آنذاك:

نسيم الورود، صخب النوافير

آلت إلى نسيان عفوى،

واستسلم العقل بلا إرادة،

لقلق غير مفهوم،

وبالقصر بظل طائر

لاحت أمامى فتاة!

* * * * *

ظل من، آه يا أصدقاء، شاهدته؟

أخبرونى: أى صورة رقيقة

تعقبتنى آنذاك؟

أروح ماريا الطاهرة

تبدت لى، أم زاريما

التى شاعت بغيرة الروح

بين الحريم المهمل؟

أذكر نظرة رقيقة كهذه

وجمال مازال دنيوى،

كل أفكار القلب تطير إليها،

اتشوق إليها فى المنفى...

يا مجنون! كفاك، توقف!

لا تحيى الشوق العبثى،

فقد سددت إتاوة

الاحلام المتمردة للحب التعيس

ثب، يا سجين، يا مثقل،

أقدرت عليك أغلال القبلات

والبوح بجنونك

فى الدنيا بقيثارة متباهية؟

يا محب لربة الشعر، يا محب للدنيا

نسيت المجد والحب،

آه، سأراك قريبا من جديد،

يا شواطئ ساجيرا المبتهجة!،

سآتى عند سفوح الجبال الساحلية،

ممتلئا بالذكريات الخفية،

ومن جديد ستسعد

أمواج تافريدا نظرتى النهمة

الطرف السحرى، سلوة العينين!

كل شىء حى هناك: التلال، الغابات،

الكهرمان، ياقوت الكروم،

جمال آوى للوديان

والسيل، وشجر الحور البارد،

كل شئ يغرى شعور الجوال،

فى ساعة الصباح المطمئنة،

حين يركض حصانه المعتاد،

فى ساعة الصباح المطمئنة،

فى الجبال، والطريق الساحلى،

والندى الأخضر

يرقص أمامه ويفج

حول صخور ايوداجا...

إلى نافورة باختشى سراى* (١٨٢٤)

نافورة الحب، نافورة حية!

أتيت إليك بوردتين هدية.

أحب هديرك الذى لا ينقطع

ودموعك الشعرية

عفارك الفضى

يرش علىّ ندى باردا:

آه، فلتتدفق، وتتدفق أيها الينبوع السار!

ولتخر، وتخر لى بحكايتك

نافورة الحب، نافورة حزينة!

واستفسرت من مرمرك:

---

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ٢، ص ١٨٣.

قرأت ثناءً على البلد البعيد،

لكنك عن ماريا صمت...

لجمة الحريم الشاحبة

احقا أنت هنا منسية؟

أم أن ماريا وزاريما

حلمان سعيدان فحسب؟

أم أن حلم الخيال وحده

رسم فى الظلمة الخلوية

لحظات رؤيتى،

ومثال مبهم للروح؟

"البلبل والوردة" (١٨٢٧) *

فى صمت الحدائق، فى الربيع، فى ظلمة الليل،

يشدو البلبل الشرقى أعلى الوردة.

لكن الوردة الحبيبة لا تشعر، لا تصغى،

تتمايل وتغفو أسفل النشيد العاشق.

لم تغن هكذا للجمال البارد؟

أفق، آه يا شاعر، فيم تطمح؟

إنها لا تسمع، لا تحس بالشاعر،

تنظر: إنها تزدهر، تنادى: ما من اجابة

---

* أ.بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ٣، ص ٨

آه يا فتاة، يا وردة، إننى فى الأغلال، (١٨٢٤) *

لكنى لا أخجل من أغلالك:

هكذا البلبل فى أشجار الغار،

ملك الطيور منشدى الغابة،

قرب الوردة الشامخة الرائعة

يعيش فى أسر عذب

ينشدها الأغانى فى حلاوة

فى ظلمة ليل الآهات.

---

* أ. بوشكين، جـ٢، ١٨٥.

"التعويذة" (١٨٢٧) *

هناك، حيث البحر دائما يرتب

على الصخور المقفرة،

حيث القمر يتألق أكثر دفئا

فى الساعة الحلوة فى ظلام الليل،

حيث يقضى المسلم أيامه

مستمتعا مع الحريم،

هناك ساحرة بدعابة،

أعطتنى تعويذة.

كانت تقول، وهى تلاطفنى:

"حافظ على تعويذتى:

ففيها قوة سحرية!

معطاة لك للحب.

من العلة، من القبر،

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ٣ ص ٣٥-٣٦.

فى العاصفة، فى الزوبعة المريعة

رأسك، يا عزيزى،

لن تنقذها تعويذتى.

وثروات الشرق

لن تهبها لك،

وعشاق النبى

لن تخضعهم لك،

وإلى حضن الصديق،

من البلاد الحزينة الغريبة،

إلى ناحية الوطن إلى الشمال من الجنوب

لن تنطلق بك تعويذتى...

لكن إذا سحرتك فجأة

عيون غادرة،

أو شفتان فى ظلمة الليل

قبلتك من دون حب

فيا عزيزى! من الجريمة،

ومن جروح القلب الجديدة،

ومن الخيانة، والنسيان

سوف تحميك تعويذتى.

القمر يسطع، والبحر ينام بلا حراك، (١٨٢٥)*

تصمت حدائق غسان الفاخرة.

لكن: من هناك يجلس فى عتمة الأشجار

على مرمر النافورة الحزينة؟

العبد الخصى، حارس الحريم الأشيب،

ومعه زميله الشاب،

«مسرور» عليل بحسرة النفس

لاتخفِ عنى

نظراتك المتجهمة، وأنينك الساخط

وأحلامك الجامحة

فمذ مدة حكوا لى كل شىء

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ٢ ص ٢٧٨.

أعرف! حياتك شاقة.

وماذا يجدى شجنك؟

يا بنى انصت للشيخ.

«من وحي العربي» * (١٨٣٥)

فتى جذاب، فتى دمث،

لا تخجل منى فنحن أهل،

ويداخلنا لهب عاصف،

ونعيش حياة واحدة.

لقد تآلفنا معاً:

تماماً مثل جوزة مزدوجة

أسفل قشرة واحدة

---

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ٣ ص ٣٢٠.

تركتني ليلى (١٨٣٦) *

مساء أمس دون اكتراث

قلت: توقفي، إلى أين؟»

فعارضتني:

«رأسك أشيب»

قلت: للمتهكمة المتعالية

«لكل أوانه!

فالذي كان مسكاً حالكاً،

صار الآن كافوراً»

لكن ليلى سخرت

من الحديث الفاشل

وقالت: «أنت تعلم:

أن المسك حلو لحديثي الزواج،

أما الكافور فيلزم النعوش.

*أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ٣، ص ٣٤٤.

لِمَ هى حزينه؟ (١٨٣٥) *

لم يعتصرها الحزن

ماذا بعد ينقصها

ملكة مصر القديمة؟

فى عاصمتها البهية،

يحرسها حشد من العبيد،

وتحكم هى فى سكينة.

يذعن لها آلهة الدنيا،

تمتلئ مخادعها بالعجائب.

يلتهب النهار الإفريقى،

ويزداد نضرة طيف الليل،

---

* كتبت هذ القصيدة من وحى كليوباترا وقد وردت فى قصة بوشكين «قضينا الأمسية فى الداتشا»، المؤلفات الكاملة لبوشكين، جـ٦ ، ص ٤٠٦.

دائما أبهة وأفانين

تطربها الأحاسيس الغافية،

الأرض كلها، وأمواج البحار كلها،

تحمل إليها فى جباية الكسوة الجميلة

وهى تستبدلها بلا مبالاة،

تارة تتألق فى بريق الياقوت،

وتارة تنتقى قميصاً أرجوانياً،

وتارة بمياه النيل الأشيب

تحت ظل الشراع الفخيم،

فى مركبتها الذهبية،

تبحر بـ «كبريدا» الفتى.

ودائماً على مشهد منها

تستبدل الولائم بولائم،

فمن فطنت روحه،

إلى كل أسرار لياليها؟

عبثاً! يعانى قلبها فى ضراوة،

إنه يتعطش للمتع الغريبة

متعبة، مشبعة

مريضة هى باللامبالاة

وتنبهت كليوباترا من التفكير

وسكنت الوليمة، كما لو كانت تغفو،

ورفعت من جديد رقبتها،

واتقدت نظراتها المتعالية،

وقالت بابتسامة:

أليس فى حبى لكم نعيم؟

انصتوا إذن لكلماتى،

يمكننى الغض عن عدم التكافؤ

فربما تكون السعادة من نصيبكم،

إننى أدعو، فمن سيتقدم،

أننى أبيع ليالى،

قولوا: من منكم يشترى ليلة منى

مقابل حياته؟

الرسول *(١٨٢٦)

يُضنينا عطش الروح،
وفى الصحراء الموحشة تمددتُ
فظهر لى فى مفترق الطريق
سارافيم ذو الأجنحة الستة
وبأصابع خفيفة مثلما فى الحلم
لمس قرة عينى:
فانفرجت مقلتاى المتنبئتان،
كأنهما عينا نسرٍ مذعور.
ولمسَ أذناى
وملأها بالضجيج والطنين،
فأصغيت إلى رعدة السماء،
وتحليق الملائكة فى الأعالى،
وسريان حركة أغوار البحار،
ونبتة الكرمة فى الوادى.

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة جـ٢، ص ٣٠٤.

انحنى على فمى،
وانتزع لسانى الآثم
الخامل والمراوغ،
وبيده اليمنى المضرجة
وضع فى فمى المشدوه
حد الحية الحكيمة
وشق صدرى بسيفه
واقتلع قلبى المرتجف،
وأقحم فى صدرى المشقوق
جذوة متأججة النيران
فانطرحت فى الصحراء كالجثة
ونادانى صوت الله:
«انهض، يا رسول، وأبصر، وأصغ
لب إرادتى،
وجب البحار والأراضى
وألهب بدعوتك قلوب الناس»

«قبسات من القرآن» * (١٨٢٤)

-١-

أقسم بالشفع وبالوتر،

أقسم بالسيف وبمعركة الحق،

أقسم بالنجم الصباح،

أقسم بصلاة العشاء:

لا، لم أودعك

يا من فى ظل السكينة

دسست رأسه حبا،

وأخفيت من المطاردة الحادة؟

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ٢ ص ١٨٨-١٩٣.

ألست أنا الذى رويتك فى يوم قيظ

بمياه الصحارى؟

ألم أهب لسانك

سلطة جبارة على العقول؟

اصمد إذن وازدرِ الخداع،

واتبع طريق الحق فى نشاط

أحب اليتامى، وقرآنى

وبشّر المخلوقات المهتزة.

-٢-

إيه، يا زوجات الرسول الطاهرات

إنكن تختلفن عن كل الزوجات:

فحتى طيف الرذيلة مفزع لكن.

فى الظل العذب للسكينة

عشن فى عفاف: فقد علق بكن

حجاب الشابة العذراء.

حافظن على قلوب وفية

من أجل هناء الشرعيين والخجلى،

ونظرة الكفار الماكرة

لاتجعلنها تبصر وجوهكن.

أما أنتم، يا ضيوف محمد

وأنتم تتقاطرون على أمسياته،

أحذروا فبهرجة الدنيا

تكدر رسولنا.

فى تحليق فكر المؤمنين

لايحب هو الثرثارين

وكلمات غير المتواضعين والفارغين:

شرفوا مأدبته فى خشوع،

وانحنوا فى أدب

لزوجاته الشابات المحكومات.

-٣-

وتجهم الرسول، وهو يتململ

بعد أن أحس دنو الأعمى:

ويسرع، لكن الرسول لايقدر

أن يظهر له الحيرة.

لأنه مع الكتاب السماوى معطى وثيقة

لك يا رسول، لا للخارجين،

بشّر بالقرآن فى سكنية،

دون أن تجبر الكفار!

علام يتغطرس الإنسان؟

على أنه جاء إلى الدنيا عاريا،

على إنه يستنشق دهراً قصيراً،

وانه سيموت ضعيفا، مثلما ولد ضعيفاً؟

ألا يعلم أن الله سيميته

ويبعثه بمشيئته؟

وأن السماء ترعى أيامه

فى السعادة وفى القدر الأليم؟

ألا يعلم أن الله وهبه الثمار،

والخبز، والتمر، والزيتون

ثم بارك جهوده

فوهبه البستان، والتل، والحقل؟

لكن الملاك سينفخ فى البوق مرتين،

وسيدوى على الأرض رعداً سماوياً:

وسيفر الأخ من أخيه،

ويبتعد الابن عن أمه.

ويمثل الجميع أمام الله،

صرعى من الرعب،

ويسقط الكفار

يغطيهم اللهب والعفار.

-٤-

معك فى القديم، يا قادر،

يا عظيم توهم أن يتبارى،

ممتلئاً بالكبرياء المجنونة،

ولكن أنت يا إلهى، أفحمته.

انت (تقول): أنا اهب العالم الحياة،

وأعاقب الأرض بالموت

فيدى مبسوطة على كل شىء.

وأنا كذلك، قال هو، أهب الحياة،

وأعاقب أيضا بالموت:

فأنا يا ربّ، ندّ لك.

لكن خيلاء الإثم خفتت

من كلمتك الغاضبة:

سأرفع الشمس من المشرق،

فارفعها أنت من المغرب!

-٥-

الأرض ساكنة، السماء بلاعمد،

الخالق الذى يدعُمك،

اجل لن يُسقط السيل على اليابس

ولن يسحقك به

لقد أضاءت الشمس فى الكون،

وأضاءت أيضا السماء والأرض،

مثل نبتة كتاب تمتلئ بالزيت،

تضئ فى مصباح بلورى

صلِّ للخالق، فهو القادر

فهو يحكم الريح، فى يوم قائظ

ويرسل السحب إلى السماء،

ويهب الأرض ظل الاشجار،

إنه الرحيم: قد كشف

لمحمد القرآن الساطع،

فلننساب نحن أيضا نحو النور،

ولتسقط الغشاوة عن الأعين.

-٦-

ليس باطلاً أن حلمت بكم

فى معركة، ورءوسكم محلقة،

وسيوفكم مضرجة،

فى خنادق، وفى بروج، وعند الأسوار

انصتوا إلى الدعوة المبتهجة،

يا أبناء الصحارى الملتهبة!

سوقوا إلى الأسر الإماء الشابات،

اقتسموا غنيمة الحرب!

لقد انتصرتم: فالمجد لكم،

ويا للسخرية من ضعاف النفس.

فنداء الحرب لم يلبوه،

ولم يصدقوا الأحلام الرائعة.

تفتنهم غنيمة الحرب

وهم الآن فى ندم،

يقولون: خذونا معكم،

لكنكم ستقولون: لن نأخذكم.

الشهداء الساقطون فى المعركة:

هم الآن فى الجنة

يغرقون فى نعيم

لاينغصه شىء.

-٧-

انهض أيها الوجل:

ففى كهفك،

مصباح مقدس

يضئ حتى الصباح.

وبصلاة خالصة،

تُنحى، يا رسول

الأفكار الشجية،

والأحلام المداعبة

واقم الصلاة فى

خشوع حتى الصباح،

والكتاب السماوى

اقرأه حتى الصباح!

-٨-

وأنتم تُتاجرون بضميركم أمام الفقر المدقع،

لاتنثر هباتك بيدٍ مقتصدة:

فالسماء تبغى الكرم الوفير.

ففى يوم الحساب العسير، ومثل حقل خصيب

آه يا ناثر الخير،

ستجازى أعمالك بأعظم الجزاء.

لكن إذا، أسفت على عطاء الدنيا المكتسب،

وانت تناول السائل عطاءك الشحيح،

وضيقت من بسطتك الغيور،

فاعرف: أن كل هباتك، مثل حفنة تراب،

غسلها مطر وفير عن حجر،

ستُمحى، وينبذ الرب العطاء.

-٩-

وتذمر إلى الله عابر السبيل المتعب

فقد أضناه الظمأ والحنين إلى الظل،

وضل فى الصحراء ثلاثة أيام وثلاث ليال،

وأرهق القيظ والغبار مقلتيه

وبحسرة يائسة استدار حوله،

فشاهد فجأة بئراً تحت النخلة.

فأسرع الخطى نحو نخلة الصحراء،

وبتيار بارد روى فى نهم

لسانه وقرت عيناه شديدتا الالتهاب،

ورقد، وغفا قرب حماره الوفى

ومرت فوقه سنوات طويلة

بمشيئة ربِّ السماء والأرض

ثم أتت للعابر ساعة الاستيقاظ،

فنهض وسمع صوتا غير مرئى:

«أنمت عميقا فى الصحراء من زمن؟»
فيجيب: ها هى ذى الشمس عالية
كانت تسطع البارحة فى سماء الصباح
نمتُ عميقا من الصباح حتى الصباح.

لكن الصوت: «آه يا عابر، لقد نمت اطول،
انظر: رقدت شاباً ونهضت كهلاً،
وقد فنيت النخلة، أما البئر الباردة
فقد نضبت وجفت فى الصحراء القاحلة،
وطمرته من زمن رمال السهول،
وابيضّت عظام حمارك»

واحتوى العجوز حزن خاطف
وانتحب وهو ينكس رأسه المهتزة...
وآنذاك حدثت معجزة فى الصحراء:

فقد بُعث العابر فى حسن جديد،

ومن جديد تأرجحت النخلة برأسها الظليل،

ومن جديد سرت فى البئر برودة المياه

وانتصبت عظام الحمار المتداعية،

واكتسى الجسد، وأصدر النهيق،

وأحس العابر بالقوة، والبهجة،

وتألق فى دمائه الشباب المتفجر

وملأ صدره الانشراح المقدس:

وانطلق مواصلاً طريقه مع الله.

«الشيطان» * (١٨٢٣)

فى تلك الأيام، حين كان جديداً بالنسبة لى

كل انطباعات الوجود

ونظرات الشابات، وضجيج البلوط،

وغناء البلبل ليلاً،

حين كانت المشاعر السامية

الحرية، المجد والحب

والفنون الملهمة

كانت تقلق الدم بشدة،

ساعات الآمال والمتع

والحسرة على الخريف المباغت

آنذاك كان يعاودنى سراً

---

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ٢ ص ١٤٤.

متمثلاً لى فى حنق

وكانت لقاءاتنا حزينة:

ضحكته، نظراته العجيبة،

أحاديثه اللاذعة

كانت تسكب فى الروح السم البارد.

وبوشاية لاتنضب

كان يوسوس بنبوءة.

كان يستصرخ الحلم الرائع

كان يزدرى الإلهام

لم يكن يؤمن بالحب، بالحرية

كان ينظر إلى الحياة فى تهكم

وما من شىء فى الطبيعة كلها

فى مباركته كان راغباً.

الفهرس

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا	جون كوين	ت : أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
الرواية العربية	روجر ألن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومى
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولمة . النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
بوشكين عند «نافورة الدموع»	الكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة

(تحت الطبع)

المختار من نقد ت . س . إليوت
الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى
تاريخ السينما العالمية
مختارات من المسرح الإسبانى
صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر
الابتلاء بالتغرب
الحب الأول
أوبرا ماهوجونى
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف
حروب المياه
ثلاث زنبقات ووردة
الأدب الأندلسى
الأدب المقارن
راية التمرد
السياسة والتسامح
مساءلة العولمة
ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى
الفجر الكاذب
الشعر الأمريكى المعاصر
مدخل إلى النصل الجامع

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٧٥١٠ / ١٩٩٩

بوشكين عند نافورة الدموع ومختارات أخرى

«بداية البدايات» «شاعر عظيم لكل الشعوب وكل العصور» و «شمس الشعر الروسى التى لا تغرب» .

هذه العبارات قيلت فى وصف شاعر روسيا الأكبر ألكسندر بوشكين ، وهى قرينة الصلة بالمكانة المضيئة والخالدة التى يحتلها إنتاجه الأدبى الذى يبرز بوصفه ظاهرة فنية حوت بداخلها أهم تيارات الأدب الروسى ، فقد جسد إنتاج بوشكين منعطفات تاريخية فى حركة التيار الأدبى فى روسيا من الكلاسيكية إلى الرومانتيكية ، ثم إلى الواقعية .

وبوشكين هو نموذج الفنان الشامل ، والشاعر القومى الحق ، المخلص للكلمة الحرة الصادقة التى جمعت بين الفنية العالية والمضمون الثرى ، وهو أيضاً مثال الفنان المبدع المجدد الذى كان له الفضل فى إرساء ضروب وموضوعات جديدة فى الأدب الروسى

ورغم إخلاصه لكل ما هو قومى حق جاء إنتاج بوشكين معبراً عن رد الفعل العالمى ، والاستيعاب الإبداعى لثقافات
وتمثل ثقافات الشعوب والعصور التاريخية المختلفة .

